

من خفايا التاريخ

مُسْتَقَاة من تجربة الشيخ الأمير "أبي مصعب الزرقاوي"



بقلم: الشيخ العالم المجاهد الإعلامي
المحنك^[1]

الشهيد : ميسرة الغريب



عضو اللجنة الشرعية بتنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين -
سابقاً -

مؤلف موسوعة أبي زبيدة الأمنية

جمع وترتيب وتنسيق

سهيل اليماني

-شبكة الفلوجة الإسلامية-

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحلقة الأولى

قصص وعبر... أقوال وأفعال... أفكار وتحليلات

وَمَنْ وَعَى التَّارِيخَ فِي صَدْرِهِ * أَضَافَ أَعْمَاراً إِلَى غُمْرِهِ

الحمدُ لله الذي أعلى لواء الجهاد في أرض العراق، الحمدُ لله الذي مدَّ للعز فيها الرُّواق، والصلاة والسلام على عَلمِ الهدى الذي صاغ بحكمته في عاصمة دولته بين أهل الشقاق أسمى وفاق، فكانوا لبعضهم نَعَمَ الرفاق، وعلى آله وصحبه الذين قطعوا بسيف جهادهم رأس الردة والزندقة والنفاق، وكانوا إلى جنة ربهم في تنافس وسباق، اللهم فَمَكَّنَّا من الكفار الذين ضَيَّقُوا على عبادك الخناق، وأَلْحَقْنَا بالسابقين الأولين شهداء قبل أن يُكْتَبَ لنا من هذه الدنيا الفراق، وكلَّ مَنْ أَمَّنَ على هذا الدعاء من قلبٍ حِرَاقٍ حَقَّاقٍ ... أما بعد:

لا يَخْفَى على المجاهدين والمطلَّعين أن فريضة العصر "الجهاد بالمعنى القتالي" قد غابت اليوم عن ذهن كثيرٍ من العلماء فضلاً عن العوام، لكنَّ صوتاً غُلُوِيَّ النداء أطلَّ عَلَيَّ فأرغمني -إن أردتُ الإنصاف- أن أقفَ هُنَيْهَةً عن رُكْبِ سائرِ البحوث العلمية والدعوية لأَتَلَمَّسَ الصواب في حكم الجهاد اليوم، فحططتُ رحلي -بعد تنقيبٍ وتنبيشٍ- على كتاب "قالوا فقل... عن الجهاد" من بين كثيرٍ من الكتب، فرأيتُ فيه شبهاتٍ المرجفين قد كُشِفَتْ، وأضاليلَ المُخَذَّلِينَ قد خُنِقَتْ، وما تَرَكَ كاتبه عذراً لمعتذر -نحسبه والله حسيبه-.

فبدا الحكمُ لي جلياً لا شائبةً فيه... "فرض عين"، من نصوص الوُحَّيْنِ وكلام أهل العلم السالِّفين بلا خلافٍ بينهم، أَضِفْ إلى هذا الإغراءاتِ العجيبة التي تُخَفُّ المجاهدين من الأجر الأخروي فضلاً عن الدنيوي كالراحة من الهم والغم الذي يُشْقِي كثيرين هذه الأيام.

لكن الجهاد ليس كلماتٍ تُسَطَّر، ولا صُحُفاً تُسَوَّد، ولا خُطَباً تُنَمَّق... إن الجهاد فعَالٌ قبل أن يكون أقوالاً تُرْصَف أو عباراتٍ تُصَفَّ، إن الجهاد الحقُّ للعالمِ الحقِّ -وطلبة العلم- يمكن أن يُخْتَصَر اليوم في عبارة: "إن كنتَ إمامي فكن أُمامي". فكان من لازم معرفة حكم الله في القتال اليوم أن أبحث عن خيطٍ يوصلني إلى مكانٍ أؤدي فيه فريضة الله تحت رايةٍ جَلِيَّة لا عَمِيَّة، وإلا فما معنى أن أعرف أن صلاة الجمعة فرضٌ عين ثم لا أبحث عن جامعٍ أؤدي فيه فرضي العيني؟ وما معنى أن يُصَلِّيَ أحدنا الجمعة في مسجدٍ ضرار، والإمامُ إمامٌ شقاق ونفاق، ومساجدُ المؤمنين كثيرة؟ ثم إن النفس نفسٌ واحدة، أفليس حرياً أن يَتَبَصَّرَ الْمُتَزَنُّ في مكانٍ وكيفية الإزهاق؟

دَعِ الْمِدَادَ وَسَطَّرْ بِالدَّمِ الْقَانِي * وَأَوَّكَّتِ الْقَمَّ وَاخْطَبْ بِالْقَمِّ الثَّانِي

فَمِ الْمَدَافِعِ فِي صَدْرِ الْعُدَاةِ لَهُ * مِنَ الْفَصَاحَةِ مَا يُزْرِي بِ"سَخْبَان"

فهيهات أن يَسْمُوَ القلمُ الراحلُ في أيامنا حتى يُسْقَى من دمٍ حمله، وحينها يصير شقيقَ السيف وحبيبَ الرشاش؛ لأنه غدا قلماً مجاهداً، وإلا فما أكثر الأقلامِ الكاتبة والمنبطة!

دَمِي لَكَ الْحَبْرُ فَاتَكْتُبْ أَيُّهَا الْقَلَمُ * حَتَّى يُسَافَرَ مِنْ شَرِيَانِي الْأَلَمُ

حَتَّى يُغَرَّدَ عَصْفُورُ الْقَصِيدَةِ فِي * دَوْحِ الْوَفَاءِ وَحَتَّى يُورِقَ النَّعَمُ

حَتَّى تَقُولَ َ لِي الْأَشْوَاقُ هَاأَنْدَا * وَيَسْتَعِيدُ بِقَايَا صَحْوِهِ الْحُلُمُ

دَمِي لَكَ الْحَبْرُ فَاشْرَبْ مِنْهُ يَا قَلَمِي * إِنَّ الدَّمَ الْحَرَّ كَالْأَمْوَاجِ يَلْتَطُمُ

أَمَا أَنْ يَجْلِسَ قَلَمُ عَالِمٍ أَوْ كَاتِبٍ مِنْ بَعِيدٍ يَنْظُرُ وَيَنْظُرُ، وَيُخَطِّئُ وَيُصَوِّبُ، وَيُكْرِمُ وَيُهِينُ، وَيَذِمُّ وَيَمْدَحُ دُونَ أَنْ يَعْرِفَ حَقَائِقَ الْأُمُورِ مِنْ أَرْضِ الْوَقَاعِ فَهَذَا تَجَنَّى عَلَى مَهْمَتِهِ، وَخَانَ أَوَّلَ مَا خَانَ أَمَانَةَ الْقَلَمِ الَّتِي أَوْلَاهَا اللَّهُ لَهُ. فكيف إذا بدل الأحكام وحرف؟ إنه عندها يَسْقُطُ مِنْ سِجِلِّ الْعُلَمَاءِ وَمُنْزَهِي الْكُتُبِ لِيَدْخُلَ فِي كُتُبِ الضَّعْفَاءِ وَالْمَتْرُوكِينَ، فَتَبَّاً لِمَنْ جَعَلَ الدِّينَ بَابَ رِزْقٍ وَمِفْتَاحَ مَنَاصِبٍ، وَلَنْ تَزُولَ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ اتِّهَامَاتِهِ الْبَاطِلَةِ لِرَافِعِي كَلِمَةِ اللَّهِ -إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ- لَأَنْ (مَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ أَسْكَنَهُ اللَّهُ رِذَّةَ الْخَبَالِ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ) .

إِنَّ الْفَقِيهَ إِذَا عَوَى وَأَطَاعَهُ * قَوْمٌ غَوَوْا مَعَهُ فِضَاعٌ وَضِيْعَا

مِثْلُ السَّفِينَةِ إِنْ هَوَتْ فِي لُجَّةٍ * تَغْرُقُ وَيَغْرُقُ كُلُّ مَا فِيهَا مَعَا

فَرَأَيْتُنِي -بعد معرفة الحكم الشرعي والبحث عن خيط- قد ساقفتني رياح الأقدار لأُتَرَّعَ فِي أَحْضَانِ "أَرْضِ الرَّافِدِينَ" أَرْضِ الْخُلَفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ، وَشَوْكَةِ الشَّجَى الْيَوْمَ فِي خُلُوقِ الْمُنْحَرِفِينَ وَالْكَفَّارِ وَالْمُرْتَدِّينَ.

فَعَسَاهَا أَنْ تَكُونَ بَشَارَةً خَيْرٍ لِي مِنْ بَابِ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فِي "سِنَنِ النَّسَائِيِّ": (إِنْ تَصَدَّقَ اللَّهُ يَصْدُقْكَ).

وَصَلْتُ وَإِذْ بِي أَتَقَيًّا ظِلَالِ إِخْوَةِ حَمَلُوا أَرْوَاحَهُمْ عَلَى رَاحَتِهِمْ، فَبَاعُوا لِلَّهِ، وَاللَّهُ اشْتَرَى.... وَقَدُوا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ تَلْبِيَةً لِنَدَاءِ رَبِّهِمْ (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا)، فَتَرَكُوا آبَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَخِلَانَهُمْ -مَعَ حَبِيبِهِمْ لَهُمْ- وَوَقَفُوا بِالْمِرْصَادِ أَمَامَ كِلَابِ الْكُفَّارِ... الْأَمْرِيكَانِ؛ ذَبًّا عَنْ الْمُسْلِمِينَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا.

سُبْحَانَ اللَّهِ! يَصْنَعُ الْحُبَّ فِي اللَّهِ عَجَبًا عَجِيبًا فِي تَحْرِيكِ الْهَمَمِ، وَرَبَطَ الْقُلُوبَ بِهَذَا الرِّبَاطِ الْفَرِيدِ... ابْتِسَامَةُ عَذْبَةٍ... إِشْرَاقَةُ سَاحِرَةٍ... رُوحَ مَرَحَةٍ... يَدَ حَانِيَةٍ عَلَى بَعْضِهِمْ... وَكَأَنَّ أَلْفَاظَ قُلُوبِهِمْ تَعَانَقَتْ مَعَ مَعَانِي أَرْوَاحِهِمْ، لَتَقُولَ بِلِسَانٍ وَاحِدٍ:

تَاللَّهِ مَا الدَّعَوَاتُ تُهْزَمُ بِالْأَذَى * أَبَدًا وَفِي التَّارِيخِ بَرٌّ يَمِينِي

ضَعُ فِي يَدَيَّ الْقَيْدَ الْهَلْهُبَ أَضْلَعِي * بِالسُّوْطِ ضَعْ عُنْقِي عَلَى السَّكِينِ

لَنْ تَسْتَطِيعَ حِصَارَ فِكْرِي سَاعَةً * أَوْ نَزَعَ إِيمَانِي وَنُورَ يَقِينِي

فَالنُّورُ فِي قَلْبِي، وَقَلْبِي فِي يَدَيَّ * رَبِّي، وَرَبِّي نَاصِرِي وَمَعِينِي

سَأُظِلُّ مَعْتَصِمًا بِحَبْلِ عَقِيدَتِي * وَأَمُوتُ مَبْتَسِمًا لِيُخَيِّرَ دِينِي

وَصَلْتُ.... إِلَّا أَنْ حُكِّمَ اللَّهُ مِنْذُ الْأَزَلِ (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ)، فَقُدِّرَ عَلَيَّ -وَالْحَمْدُ لَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ- ظَرْفٌ عَصِيبٌ خَرَجْتُ بِهِ مِنْ مَكَانِي حَتَّى كِدْتُ أُخْرِجُ بِهِ مِنْ أَرْضِ الْعِرَاقِ وَنَفْسِي تَتَلَهَّفُ عَلَى الْبَقَاءِ، فَعَشْتُ /28/ سَاعَةً عَلَى أَعْصَابِي، أَتَنَهَّدُ تَنَهُّدَ الْمَلْهُوفِ، وَأَزْفُرُ زَفَرَاتِ الْمَصْدُورِ... أَدْعُو اللَّهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ أَنْ يَخْتَارَ لِي الْخَيْرَ، وَأَرْدَدَ كَلِمَاتِ "يُونُسَ" فِي بَطْنِ الْحَوْتِ، وَأَكْثَرَ مِنَ الْاسْتِغْفَارِ، وَمَا عَهْدُنَا أَنْ يُخَيِّبَ مِنْ لَجَأٍ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ.... إِلَى اللَّهِ!

وَإِذَا بِالْأَمَلِ يَنْبَعثُ مِنْ مَقْبَرَةِ الْيَأْسِ، وَيُطِلُّ الْفَرْجُ مِنْ خَاصِرَةِ الْحَرَجِ، فَتُلْعَى الْإِجْرَاءَاتُ قَبْلَ /10/ دَقَائِقٍ مِنْ مَوْعِدِ قِطَارِ السَّفَرِ.

وَحَالَ /24/ سَاعَةً يَتَرَاى أَمَامِي قَوْلُهُمْ: "رَبُّ ضَارَةٍ نَافِعَةٍ"، بَلْ قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) فَأَجِدُ نَفْسِي -فِي مَنْطِقَةٍ لَا أَعْرِفُ مَا اسْمُهَا- بَيْنَ يَدَيَّ أَمِيرِ "جَمَاعَةِ التَّوْحِيدِ وَالْجِهَادِ": "أَبِي مَصْعَبِ الزَّرْقَاوِي"، أَلْتَقِطُ أَنْفَاسِي بَعْدَ اخْتِنَاقٍ مَحْتُومٍ.

وَكُنْتُ أَتَيْتُ الْعِرَاقَ رَاجِيًا أَنْ يُكْرِمَنِي اللَّهُ بِأَشْيَاءَ تَنْفَعُ الْمُسْلِمِينَ وَأُكْسِبَ مِنْ وَرَائِهَا أَجْرًا إِلَّا أَنْ أَمْنِيَّتِي لَمْ تَرَقْ إِلَى هَذَا الْمَرْتَقَى، خَاصَّةً وَأَنِّي أَعْلَمُ وَضْعَ "الشَّيْخِ" الْحَسَّاسِ وَأَنْ أَنَاسًا قَلَائِلَ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَلْتَقُونَ بِهِ، لَقَدْ انْقَلَبَتِ النَّقْمَةُ فِي سَاعَاتٍ مَعْدُودَاتٍ إِلَى نِعْمَةٍ، وَكَيْفَ يَغْلِبُ غُصْرُ يُسْرِينَ، أَسْأَلُ اللَّهَ حَسَنَ الْخِتَامِ.

فَإِنَّ الْمَرْحَاحِينَ يَسْرُ خُلُوءٌ * وَإِنَّ الْحُلُوءَ حِينَ يَضُرُّ مَرُّ

فخذ مرّاً تصادف منه نفعاً * ولا تعجل إلى خلو يَصْرَ

وفي إحدى لحظات اللقاء ما استطاع بصري إلا أن يسارقني ليرجم الشك باليقين: أَحَقّاً هذا الرجل مقطوعُ الرَّجْلِ كما أكّد الإعلام الأعرج؟!

لقد كنتُ أعلم من قبلُ يقيناً أنه سليم الرجلين من مصادرٍ موثوقة -ثم اطمأن قلبي الآن- إلا أنني رغم جزمي هذا خامرَتني شائبةٌ من شكٍّ لكثرةِ نطق غربان الإعلام.... فسبحان الله كم للإعلام من أثر، فأين أنتم يا شباب الإعلام... من بني الإسلام؟

إعلام هذا العصر شر ظاهر * فعلى يديه تُزَوَّرُ الأخبارُ

وعلى يديه تُباح كل رذيلة * وعلى يديه تُشَوَّه الأفكارُ

وبه تُشَبُّ النارُ يُوقَدُ جَمْرُهَا * وبه يُثارُ من الشكوكِ غُبارُ

ومن أجل إعلام الغرب الزَّئيم اضطرَّ الشَّيْخُ أن يُظْهِرَ بعض انتصاراته وبعض كذبهم، فقد تناهى إلى سمعي قبل أن ألتقي بالشَّيْخِ أنه آثر الكمون أول الأمر بعيداً عن صَخَبِ البهارج والفتخخة من إعلانات وأفلام ونحوها؛ لئلا يكون:

كمثل الطبل يُسمَع من بعيد و باطنه من الخيرات خال

ويبدو أن الشَّيْخَ -حفظه الله- لا يحب أن يكون "كُنْتِيّاً"، حتى أنه تعمَّد أن لا يُصوِّر شيئاً من العمليات ضد الأمريكان لتبقى سرّاً بين العبد وربّه، إلا أن إعلام الكفر السافر أبى عليه إلا أن يُخرج شيئاً من الحقائق، فساقته الأحداثُ اليوم إلى الظهور في العراق رغم نفوره من الظهور، ولسان حاله: "مُكْرَءُ أخاك لا بَطْل".

ولعل الله شاء بحكمته أن كلما أخفى المجاهدون عن اليسرى ما فعلت يُمنّاهم أبت يسراهم إلا كشفاً.

حتى أنني سألتُه في أول لقاء جَمَعَنَا: "لو استقبلت من أمرك ما استدبرت ماذا كنتَ تتمنى؟" فقال: وددتُ لو أنني قُتلت في "خوست" في أفغانستان سنة /1410هـ- 1990م/... فاستفسرته عن السبب، وقد تَمَلَّكَنِي العَجَب...!؟

لماذا يود أن يُقتل آنذاك وقد يَسَّرَ الله على يديه اليوم ما لم ييسره على يد أحدٍ من ملايين المسلمين الخانعين...!

وإذ به كان يرى نفسه آنذاك أرقَّ قلباً وأصفى روحاً من الآن، فقلت في نفسي: لا تثريب عليك فقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام -وهو نبي- يُغان على قلبه فيلجأ إلى الاستغفار في اليوم مئة مرة، وبما أن حالة النبي القلبية ليست واحدة فإنني لأتوقع أنه كان أرق قلباً يوم كان يَتَحَنَّن في غار حراءَ لوحده قبل أن يختلط بالناس، ولكنَّ الحكم الشرعي والأجر الأخروي في مثل حالنا واضح؛ ف (المؤمن الذي يُخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يُخالط الناس ولا يصبر على أذاهم).

فعسى الله أن يكون بكرمه اختار الشَّيْخَ ليكون من أهل:

ما كان قولك ألفاظاً ترددها * جوفاء لكنه بالفعل مقرون

- وما هو إلا يوم أو يومان حتى بدأت خفايا الأحداث من حياة الشَّيْخِ، أو أفكاره، أو تحليلاته، أو أسبابٍ عددٍ من تصرفاته... بدأت تبدي لي من مرافقتي له، وتتكشَّف من حديثه معي، فرأيتُ من حق الحقيقة عليّ أن أُخرجَ للعالم شيئاً منها من رحم المجهول، لتعرف أمتناكم ظُلم أشخاص بسبب الإعلام، وكم سُحق أشخاص بسبب الافتراء، والمسلمون في سبائهم يمشون مع الناعقين الغربيين وصداهم من الشرقيين... يصفقون ويسرحون ويمرحون.

لقد شعرتُ أنني الآن أمام محيط هدار، تحيط به علامات الاستفهام، وتَحْفُّهُ علامات التعجب، عالمٌ غصَّ بخفايا التاريخ، فوجدتني مشدوداً أن أضرب خاصرة قلمي ليشد السير ولكن على متن هذا المحيط، ف:

يا راكباً متن المحيط مسافراً * ما بين حلقة ليله ونهاره

هلا سألتَ البحر عما جَنَّهُ * في جوفه وحواه من أسرارهِ

يا زُرْقَةَ الْأَمْوَاجِ بُؤْحِي بِالَّذِي * هَمَسْتَ بِهِ الْأَنْسَامَ فِي أَسْحَارِهِ
 اقْرَأْ وَرَاءَ سَطُورِهِ يَا قَارِئاً * فَيَحَارُ لَبِكَ فِي دَجَى أَفْكَارِهِ
 - حَقّاً! إِنْ مِنْ تَوْفِيقِ اللَّهِ لِلْعَبْدِ أَنْ يُلْهِمَهُ اسْتِثْمَارَ الْفُرْصِ الَّتِي لَا تُعَوِّضُ لِعُودِ نَفْعاً عَلَى قَوْمِهِ:
 إِذَا هَبَّتْ رِيَا حُكَّ فَاعْتَمَمَهَا * فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سَكُونٌ
 وَلَا تَغْفُلْ عَنِ الْإِحْسَانِ فِيهَا * فَمَا تَدْرِي السَّكُونُ مَتَى يَكُونُ؟
 وَإِنْ دَرَّتْ نِيَا قُكَّ فَاخْتَلِبْهَا * فَمَا تَدْرِي الْفَصِيلُ لِمَنْ يَكُونُ؟

وَالْحَكِيمُ مَنْ اسْتَفَادَ مِنْ تَجَرِبَةِ غَيْرِهِ، صَغِيراً كَانَ أَوْ كَبِيراً، إِذْ لَا يَخْلُو امْرُؤٌ مِنْ حِكْمَةٍ، وَقَدْ يَوْجَدُ فِي الْأَنْهَارِ مَا لَا يَوْجَدُ فِي الْبَحَارِ.

إِلَّا أَنْ مَا يُغْرِي حَقّاً أَنْ تَرْتَشِفَ مِنْ خَبْرَةٍ مِنْ أَفْنَى عَمَرِهِ فِي أَرْضِ الْجِهَادِ... خَبْرَةِ رَجُلٍ حَنَكْتَهُ الْأَيَّامُ وَخَمَّرَتْهُ التَّجَارِبُ بَعْدَ أَنْ حَمَلَ عَصَا التَّسْيَارِ فِي أَرْضِ اللَّهِ مُحَارِباً لِلطَّوَاغِيتِ بِقَلْبِهِ وَقَالِبَهُ... إِنَّهُ لَمُغْرٍ حَقّاً أَنْ تَرْتَشِفَ مِنْهُ رَحِيقاً سَلْسَبِيلِي الْمَذَاقِ حَتَّى يَغْدُوَ مِنْ نَحْلَةٍ صَغِيرَةٍ شَهِيداً مُصَفًّى عَلَى خَدِ الزَّمَانِ يَتَذَوِّقُهُ مِنْ شَاءِ مَنْ أَبْنَاءُ أُمَّتِنَا الْإِسْلَامِيَّةِ... وَلَوْلَا الرَّحِيقُ مَا كَانَ الْعَسَلُ.
 وَإِنِّي لِأَحْمَدِ اللَّهِ الْآنَ أَنْ لَمْ أَكُنْ ككَثِيرٍ مِنْ مَغْتَالِي الضَّمَائِرِ مِمَّنْ لَمْ يُطَبِّقُوا أَخَصَّ خَصِيصَةٍ فِي نَقْدِ الرِّجَالِ عِنْدَ عِلْمَائِنَا السَّالِفِينَ... أَعْنِي عَدَالَةَ الرِّوَاةِ فِي السَّنَدِ، فَإِذَا كَانَ الْإِسْنَادُ مِنَ الدِّينِ، فَإِنْ عَمِدَ صَحْتُهُ عَدَالَةُ الرَّوَايَةِ، فَكَيْفَ يَتَّقِ كَاتِبُونَا بِصَحْفِ الْغَرْبِ الْكَافِرَةِ الَّتِي طَلَقَتْ الْعَدَالَةَ -الَّتِي عَزَفَهَا عِلْمَاءُ الْحَدِيثِ- تَطْلِيقاً ثَلَاثاً مُنْفَصَلَاتٍ؟
 وَكَيْفَ يَظُنُّونَ أَنْ أَعْدَاءَ اللَّهِ يُمْكِنُ أَنْ يَقُولُوا الْحَقِيقَةَ بِنَفْسٍ سَمُوحَةٍ، وَرُوحٍ طَلِيقَةٍ؟

مَا عَهَدْنَا أَنْ نَرَى فِي اللَّيْلِ شَمْساً * أَوْ نَرَى فِي وَهَجِ الْقَيْظِ هَالِلاً
 مَا عَهَدْنَا أَنْ نَرَى فِي الشَّرْقِ غَرْباً * أَوْ نَرَى فِي رَاحَةِ الْيَمَنِ الشَّمَالاً
 آهَ مِنْهَا لَمْ نَزَلْ نُلَيْسَ زَيْدًا * ثَوْبَ عَمْرٍو وَنَرَى الْقِرْدَ غَزَالاً

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَنَّنِي هَا هُنَا أَرَى بِأَمِّ عَيْنِي، وَأُسْجِلُ بِخُرِّ قَلَمِي، وَمَا بَقِيَ إِلَّا أَنْ يَتَّقِيَ الْكَاتِبُ اللَّهُ فِيمَا يَكْتُبُ، وَأَنْ يُلْهِمَهُ اللَّهُ السَّدَادَ، وَيُخْرِجَ عَلَى يَدَيْهِ -بِفَضْلِهِ- الْإِنْصَافَ الَّذِي طَالَمَا ظَلَّ مَدْفُوناً فِي سَرَادِيبِ الْإِجْحَافِ.

فِيَا مَنْ تَرِيدُونَ الْإِنْصَافَ تَعَالَوْا كَمَا جَاءَ غَيْرُكُمْ ثُمَّ احْكُمُوا، وَإِلَّا فَاقْنَعُوا مِنَ الْمَعْمَعَةِ بِالصَّمْتِ، وَ:

أَقْلُوا عَلَيْهِمْ لَا -أَباً- لِأَيِّكُمْ- * مِنَ اللَّوْمِ أَوْ سُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا

- وَقَدْ يَظُنُّ نَاسٌ أَنْ لَا فَائِدَةَ مِنْ سَرْدِ التَّارِيخِ الْفَائِتِ أَوْ حَتَّى الْحَاضِرِ إِلَّا تَرْجِيَةُ الْوَقْتِ وَمَلَأُ الْفَرَاغَ، وَسَهَا هُوْلَاءَ عَنْ فَوَائِدَ عَظِيمَةٍ مِنْ سَرْدِ وَدِرَاسَةِ التَّارِيخِ، وَيُمْكِنُ إِيجَازُهَا بِ: تَحْصِيلِ عِبْرَةٍ أَوْ اكْتِسَابِ خَبْرَةٍ أَوْ إِصْدَارِ فَتْوَى، وَسَافِصِلِهَا فِي الْحَلْقَةِ الْقَادِمَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَلَيْسَتْ أَحْدَاثُ الْيَوْمِ تَارِيخُ الْغَدِ؟

أَتَانَا أَنْ "سَهْلاً" ذِم - جَهْلاً- عِلْماً لَيْسَ يَدْرِيهَنْ "سَهْلٌ"

عِلْماً لَوْ دَرَاها مَا قَلَّها وَلَكِنَّ الرِّضَا بِالْجَهْلِ سَهْلٌ

• وَلَعَلَّ مُتَسَائِلًا يَتَسَاءَلُ: لِمَاذَا لَمْ يَصْغُ الشَّيْخُ هَذِهِ الْحَلَقَاتِ بِنَفْسِهِ؟

لِهَذَا أَسْبَابٌ عَدِيدَةٌ أَقْتَصِرُ عَلَى أَهْمِهَا وَأُظْهِرُهَا:

1- أَرَادَ الشَّيْخُ أَنْ يَفْسَحَ الْمَجَالَ لْغَيْرِهِ مِنْ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَهَذَا يَذْكُرْنِي فِي مَوْضُوعِنَا بِالْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ الْقَائِلِ: [وَدِدْتُ أَنْ النَّاسَ تَعَلَّمُوا هَذَا الْعِلْمَ عَلَى أَنْ لَا يُنْسَبَ إِلَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ]، فَهَمُّهُ -رَحِمَهُ اللَّهُ- أَنْ يُنْشَرِ الْخَيْرَ وَلَا يَضُرَّهُ عَلَى يَدٍ مِنْ انْتِشَارِ.

2- أن أعباء القيادة في مثل الظروف الممرية والعقبات الكأداء تشغل ذهن كبار الخبراء، ومثل هذه الصياغة والتنسيق تحتاج ذهنًا أبعد عن صخب المشاكل وضوضاء المشاغل، فكان ما كان.

3- كثيرًا ما يكون الرجلُ صاحبُ التجربة قد امتلأ خبرة حتى مُشاش عظمه لكنه ينظر إلى تجربته أمام تجربة العظام من السابقين فيراها صغيرة لا يليق أن تُذكر بجوارهم كما قال أحد التابعين: [ما نحن فيمن مضى إلا كبقلي في أصول نخل طوال]؛ لذا يزهد بتجربته فلا يَنشَط لكتابتها، لكن هذه الخبرة لمن هو دونه سنًا وخبرة أو للأجيال القادمة قد تكون بمنزلة الكبريت الأحمر أو الإكسير الأصفر لمشابهة واقعه بواقعهم مثلاً.... فيشاء الله أن يلقي مثلي دلوه في هذا الإخاذ الكبير عساه يُخرج لجيلنا عبرًا تكون أقرب ما تكون إلى حديث نبينا العظيم عند حديثه عن الأنبياء وعن نفسه عليهم الصلاة والسلام (مَثَلِي ومَثَلُ الأنبياء من قبلي كمثلي رجل ابتنى بيوتًا فأحسنها وأجملها وأكملها إلا موضعَ لَبَنَةٍ من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون ويُعجبهم البنيان، فيقولون ألا وضعت ههنا لَبَنَةً فيتم بنيانك، ... فكنتُ أنا اللبنة)، ولم يقل: "فكنت أنا البيت"، مع أنه نبي عظيم أتى بالدين الخاتم، فأحرى بأمثالي أن يكونوا ذرة من لبنته عليه الصلاة والسلام.

* فما هو منهجي هنا في هذا الكتاب، الذي سيتم إخراجُه -إن شاء الله- على حلقات؟

طلبْتُ من الشيخ حفظه الله أن نبدأ من هذه اللحظة بتسجيل الأحداث الجديدة أولاً فاولاً حتى لا تفوتنا، ثم كلما تيسر وقتٌ عند الشيخ نجلس سوية لتتجاذب أطراف الحديث من بدايات التزامه بخط الجهاد، وآثرتُ أن يحدثني بادئ ذي بدء عن بدايات وصوله إلى العراق بعد سقوط إمارة طالبان وكيف كانت أولُ شرارة في ذهنه تجاه أرض الرافدين، ثم نعودُ إلى بداياته الأولى في "الأردن".

ولن يكون تركيزي في هذه الأحداث على مجرد الحَدَث بقَدَرٍ ما سأحاول التركيز على الحَدَث ذي العَبرِ إذ ما يهمننا العبرة والاتعاظ واقتناص الفوائد، فالقلوب تصدأ فتحتاج إلى صقل، والمؤمن يَغفُل فيحتاج إلى تذكير، فإن لم نَكسِب من حلقاتنا إلا هذا فحسبنا، بَيِّدَ أني لن أَضِنَّ -إن شاء الله- بذكر الأحداث الرئيسة، ومعاذَ الله أن أَدْعِي أن كل ما سأكتبه سيكون رائق المبنى بديع المعنى، ولكن إذا قَصَّرَ الكبار من أرباب القلم بالواجب عليهم كان حقاً على من دونهم أن يحملوا الراية، وخشية من مخالاب المنايا، ومن باب "خير البر عاجله" رأيتُ أن أسرع بإخراجها مع أن الرُويَّة أفضل، فمبدئي هنا: "ما لا يُدرَك كله لا يُترك جُلُّه"، لكن الكتابة ليست تمرّاً أنت آكله، ومن صَنَّف فقد استهدف -كما قيل- أسألُ الله التيسير.

* تنبيهات قبل البدء في صلب الحلقات:

1) الأحداث المذكورة تَوَخَّيْتُ فيها الدقة النقلية ما استطعتُ إلا أن كتابة التاريخ لا تخلو من نُقُولٍ بالمعنى فأسألُ الله السداد والإنصاف.

2) ما أكتبه وإن تَوَشَّح باسم الشيخ "الزرقاوي" إلا أنه يمثل منهجاً لجماعة مستمرة وقد شاء الله أن يكون اليوم هو أميرها، والشيخ نفسه لا يرضى أن يكون أمر الجماعة مرتبطاً بشخصه، وعلى كل أخ مسلم أو أخت مسلمة يغارون على دينهم أن ينشروا هذه الحقائق على الملأ في المنتديات الإلكترونية والمكتبات وما يتيسر من وسائل نشر حتى يعلم الناس الخفايا، إحياءً للحق الموءود.

3) لن أتقيد بطول معين للحلقة وإنما بقَدَرٍ كفاية توضيح الفكرة واقتباس العبرة وضمن حدود المقبول إن شاء الله.

4) سأذكر في الحلقات أحاديث ومواعظ وأشعاراً وتراجم وما تيسر، ولا يخفى ما لها من فوائد خاصة مع ربطها بالأحداث، وسأوضح درجة صحة الأحاديث المذكورة، وأما ما لم أذكر درجته فيحتاج نظراً في سنده.

5) ضبطي للكلمة بضبطٍ ما لا يعني أن غيره غير صحيح، فقد يصحُّ ضبطان لغة فأختار أحدهما فحسب.

6) النِّقَاطُ الْمُتَتَالِيَةُ هَكَذَا (...) لِلدَّلَالَةِ عَلَى كَلَامٍ مَحْذُوفٍ فِي النَّصِّ الْمَنْقُولِ.

7) إِنْ وَجَدَ إِثْنَاءً عَلَى شَخْصٍ فِي هَذِهِ الْحَلَقَاتِ فَلَا يَعْنِي إِقْرَارُهُ عَلَى كُلِّ مَا عِنْدَهُ أَوْ عَلَى مِنْهَجِهِ، وَلَكِنْ الْمَقَامُ فِي عِجَالَةٍ هَذِهِ الْحَلَقَاتِ رُبَّمَا لَا يَحْتَمِلُ التَّفْصِيلَ، فَقَدْ نَمَدَحَ الرَّمْخَشْرِي مَثَلًا مِنْ حَيْثُ بَرَاعَتُهُ فِي الْعَرَبِيَّةِ مَعَ تَبَرُّنَا مِنْ عَقِيدَتِهِ الْاِعْتِرَازِيَّةِ، فَلَا يَعْنِي مَدْحِي لِعَرَبِيَّتِهِ أَنَّنِي أَقْرَهُ عَلَى كُلِّ مَا عِنْدَهُ.

8) قَدْ يَتَأَخَّرُ نَشْرُ الْحَلَقَةِ عَنْ مَوْعِدِ انْتِهَائِي مِنْهَا قَلِيلًا؛ فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْأُمْنِيَّةِ أَنْ يَتِمَّ نَشْرُ الْحَلَقَةِ مِنْ مَكَانٍ وَجُودِ الشَّيْخِ؛ لِذَا فَإِنْ بُعِدَ مَكَانُ النِّشْرِ عَنْ مَكَانِ كِتَابَتِي قَدْ يَكُونُ لَهُ دَوْرٌ فِي التَّأْخِيرِ، وَإِنْ تَنَقَّلَ الشَّيْخُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ دُونَ ثَبَاتِ يَسْهَلُ الْأَمْرُ.

9) مِنَ الْحَلَقَاتِ مَا يَصْلَحُ -لَطَوْلُهُ وَأَهْمِيَّتُهُ- أَنْ يَكُونَ كِتَابًا مُسْتَقْلَالًا كَالْحَدِيثِ عَنِ الشَّيْعَةِ الرَّوَافِضِ الْيَوْمِ وَسَبَبِ مَقَاتَلَةِ جَمَاعَةِ التَّوْحِيدِ وَالْجِهَادِ لَهُمْ أَوْ عَنِ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ وَمِنْهَجِهِمْ؛ لِذَا آثَرْتُ أَنْ أَفْصِلَهَا لِتَكُونَ مِثْلَ هَذِهِ الْمَوَاضِيْعِ حَلَقَاتٍ لَوْحَدِهَا مُتَسَلِّسَةً مُسْتَقْلَلَةً؛ كَفَرْعٍ طَوِيلٍ وَمُتَمَيِّزٍ لِلْأَصْلِ الَّذِي عُنُونَتُهُ بـ:

"مِنْ خَفَايَا التَّارِيخِ"

اللَّهُمَّ فَسَدِّدْنِي، وَاهْدِنِي لِأَقْرَبِ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، وَاكْتُبْ لِي الْقَبُولَ فِي الدَّارَيْنِ، [فَإِنْ يَكُ صَوَابًا فَمِنْ اللَّهِ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّْي وَمِنْ الشَّيْطَانِ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ بِرِيئَانِ].

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

إِلَيْكُمْ يَا بَنِي قَوْمِي كِتَابًا * حَوَى تَارِيخَ أَحْدَاثٍ عِظَامٍ

وَرُوحِي فِي مُحَيَّاهُ تَجَلَّتْ * وَذَا رَسْمِي إِذَا غَابَتْ عِظَامِي

-انتهت الحلقة الأولى-

الحلقة الثانية

قصص وعبر * أقوال وأفعال * أفكار وتحليلات

وَمَنْ وَعَى التَّارِيخَ فِي صَدْرِهِ * أَضَافَ أَعْمَارًا إِلَى عُمْرِهِ

الحمد لله ثم الحمد لله على تيسيره....

تتابع في الحلقة الثانية من سلسلة خفايا التاريخ، وكنت وعدت أن أتحدث بنُبْدَة عن أهمية دراسة التاريخ وفوائده للمسلمين، وذكرت هناك فوائد أساسية لهذه الدراسة، وهي: تحصيل عبرة أو اكتساب خبرة أو إصدار فتوى.

1- الفائدة الأولى: تحصيل العبر وتثبيت القلوب:

إن الاعتبار بما حلَّ بالكافرين والعصاة، وسردُ قصص أهل الإيمان سواء طاعتهم، أو أخلاقهم أو صبرهم أو بلاؤهم وابتلاؤهم، أو جهادهم أو أي شيء من فاضل أعمالهم فيه تثبيتٌ وتسليّة.

وصقل القلوب وتليينها، ودفع المرء ليتشبه بأهل الصلاح والعلم والعمل مما يحتاجه المسلم الغريب اليوم.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم . . . إن التشبه بالكرام فلاحُ

بل ندب الله الكافرين إلى الاعتبار كما ندب إليه المؤمنين، فقال تعالى مهدداً للكافرين: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ) غافر 21 - 22.

وقال الله تعالى تسليّةً للمؤمنين وتثبيتاً لهم: (وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ). [هود 120].

فعندما نسمع مثلاً في هذه الحلقات عن جن الجندي الأمريكي وهلهه وفراره وتواريه، وعن انتصارات إخواننا مع أن أسلحتهم وعتادهم بجوار الأمريكيان لا شيء، وفوق هذا لا تجرؤ أمريكا اليوم أن تدخل مدينة صغيرة اسمها "الفلوجة"، هذا كله فوائده كثيرة للمسلمين لا تخفى حتى على غير المختصين في علم النفس.

مَنْ لَمْ يَعِظْهُ الدَّهْرُ لَمْ يَنْفَعْهُ مَا * رَاحَ بِهِ الْوَاعِظُ يَوْمًا أَوْ غَدًا

مَنْ لَمْ تُفِدْهُ عِبْرًا أَيَّامُهُ * كَانَ الْعَمَى أَوْلَى بِهِ مِنَ الْهُدَى

2 - الفائدة الثانية: اكتساب الخبرات

بدراسة التاريخ تُعرَف أسباب نهوض الأمم والدول، وأسباب سقوطها وتخلفها، وبدراسة التاريخ تُعرَف طبائع الشعوب والبلدان، وبدراسة التاريخ يستفاد من أخطاء من سبقك لتجنبها وتكمل المسير من حيث انتهى لا من حيث بدأ.

وكل هذا يرجع إلى حقيقة واحدة وهي أن التاريخ يعيد نفسه؛ أي كلما وجد سبب معين ترتبت عليه نتيجة معينة، وهذا شيء دلت عليه نصوص الشريعة، ويشته استقراء أحداث التاريخ، فأحداث التاريخ هي سنن الله الكونية القدرية، وهذه السنن ثابتة لا تتبدل.. قال تعالى: (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) الفتح 23.

لذا تجد تدريس التاريخ العسكري جزءاً أساسياً من مناهج التدريس في الكليات العسكرية، حيث تتم دراسة المعارك المختلفة، ولماذا انتصر هذا وهُزم ذاك؟

ولأجل هذه الفائدة كان أساتذة التاريخ من المشاركين الأساسيين في وضع استراتيجيات الدول، وتحديد متطلبات أمنها القومي.

3 - الفائدة الثالثة: إصدار الفتاوى والأحكام.

معرفة الواقع واجبة خاصةً على أهل العلم المتصدرين لإفتاء الناس في نوازلهم ومُلماتهم. إذ الفتوى هي معرفة الواجب في الواقع، فلا إصدار فتوى في حادثة معاصرة لا بد من معرفة ملابسات الحالة كما ينبغي، قال ابن القيم رحمه الله في أكثر من موضع من كتابه "إعلام الموقعين": (إن الفتوى هي معرفة الواجب في الواقع)، والواجب أي ما حَكَمَتْ به الشريعة، والواقع هو الحال المسؤول عن حكم الشريعة فيه.

لذا فإن علماء المسلمين وطلاب العلم أحوَج من غيرهم إلى هذه الدراسة ليتمكنوا من القيام بالواجبات الشرعية بوجهها الصحيح؛ لذا تجد أن المؤرخين من السلف كانوا علماء فقهاء كابن جرير الطبري، والحافظ الذهبي، وابن كثير وابن خلدون وغيرهم، وكانوا أعلم الناس بما مضى وبواقعهم الذي يعيشون فيه، رحمهم الله أجمعين. ومما ينبه على وجوب معرفة الواقع وأهميته لأهل العلم خاصة، ما يلي:

1- ما ورد في حديث قاتل المئة، حيث أفتاه الثاني -العالم- بترك أرضه؛ لأنه أدرك خطورة البيئة بعد أن عرف واقع البيئة.
2- إخبار الله بهزيمة الروم بمكة قبل الهجرة لَفَتَ أنظارهم بهذه الآيات إلى واقع العالم من حولهم في زمانهم وإلى موازين القوى الدولية فيه؟ وهو ما نعبّر عنه بالاهتمام بالسياسة الدولية والصراعات العالمية، إذ كانت الفرس والروم هما القوتين العظميين في ذلك الوقت.

وليس الاهتمام بالسياسة الدولية من باب النافلة، بل هو واجب أيضاً لما يترتب عليه من واجبات أملتها عالمية هذا الدين وعموم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الخلق كافة، هذا العموم الذي ترتب عليه تقسيم الخلق إلى مؤمن وكافر، وتقسيم العالم إلى دار إسلام ودار كفر. قال تعالى: (لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) الفرقان 1، وقال تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) الأعراف 158.

3- ما نبّه عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) متفق عليه. فهذا الحديث يدل بإشارته على وجوب معرفة أحوال المسلمين في العالم وواقعهم، على العالم والعامي على السواء، للعموم الوارد في الحديث، وأن يهتم المسلم لما يصيب المسلمين في أي مكان، وأن يُعينهم بنفسه أو بماله أو بدعائه، فمن لم يفعل ذلك فليس من هذا الجسد إذ لم يتأثر بما أصاب الجسد. إلا أننا نرى قلة من أهل العلم من يتابع واقعه، وترى أكثرهم يتوارى من الواقع السياسي المرير إما إلى الاعتزال أو إلى أروقة مسائل شرعية لا تتعلق بنظام الحكم.

* وهذه أمثلة لأهمية معرفة الأحداث المعاصرة أو القديمة لطالب العلم:

1. إذا وقعت حادثة معاصرة ورأينا أهل العلم السابقين أفتوا بفتوى وأردنا الاستفادة منها فلا بد من معرفة ملابسات حالتهم لنعرف مدى انطباق واقعهم على واقعنا.

2. تحريم تداول كتب تشتمل على الكفر الصريح أو بدع الضلالة موجودة في أسواق المسلمين الآن -كوسائل إخوان الصفا-

3. كثير من رجال يقدمهم الطواغيت المعاصرون للأجيال الناشئة من المسلمين على أنهم عباقرة مصلحون، وإذا بحثت في تاريخهم وجدت أنهم مجرمون كان شغلهم الشاغل إفساد المسلمين وتخريب عقولهم (2). وهذه المعرفة تترتب عليها أحكام منها: (أ) معرفة أوليائهم الذين يتبعون منهجهم.

(ب) الحذر من ضلالهم وإفسادهم.

(ت) تحريم النظر في كتبهم وتأثيم من يشارك في طبعها وترويجها.

4. ومن ناحية مقابلة... لتبريء ساحة من افتري عليه خاصة إن كان من الأفاضل؛ لأن الذب عن المسلم مطلوب.
5. والحكم بتصحيح حديث أو تضعيفه يستلزم النظر في تواريخ عدد من الرجال هم رجال سلسلة إسناد هذا الحديث.
- * والناظر في تاريخ العالم وخاصة في الـ500/ سنة الماضية -وهو ما يُسمى بالتاريخ الدولي الحديث- يَخْرُجُ بعدة نتائج، هي ثمرة دراسة هذا التاريخ، ومنها:

1- أهم الحقائق المفسرة لأحداث التاريخ هي الاختلاف الذي أراده الله قدراً بين الخلق، وما ترتب عليه من صراعات وتحولات على مر التاريخ، مع ما يترتب على هذا الاختلاف القدري من واجبات شرعية، وقد ذكر الله تعالى هذا الاختلاف في نصوص كثيرة منها: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) هود 118 - 119، وهذا الاختلاف عدة أنواع: منه ما يكون بين المسلمين بعضهم بعضاً، وهو من أسباب تسلط الكفار عليهم، ومنه الاختلاف بين الكافرين بعضهم بعضاً، ومنه الاختلاف بين الكافرين والمؤمنين.

والتاريخ الإسلامي هو الترجمة الواقعية للحقائق الشرعية، وجزء كبير منه هو تاريخ التفرق والاختلاف والتقاتل على الملك والسلطان مما أضعف هذه الأمة على التدرج، ومكّن للكافرين منها كالصليبيين والمغول الوثنيين، حتى تمكن الكافرون من تمزيق هذه الأمة إلى أشلاء ممزعة في هذا الزمان، قال تعالى (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ). [الشورى 30].

وهذا التفرق والتقاتل هو مصداق قوله صلى الله عليه وسلم: (سألت ربي ثلاثاً... وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها) رواه مسلم. ومقتضى ذلك أن لا يزال الاختلاف والتقاتل واقعاً في الأمة، وهو ما تؤكد أحداث التاريخ.

فإذا اختلف المسلمون وتقاتلوا سلط الله عليهم العدو الكافر (...). وإني قد أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة وأن لا أسلط عليهم عدواً ممن سواهم فيهلكهم بعامة حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً وبعضهم يقتل بعضاً وبعضهم يسيى بعضاً (3)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم (إني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين، فإذا وُضِعَ السيف في أمتي لم يُرفع عنهم إلى يوم القيامة) (3)، فاختلاف المسلمين وتقاتلهم قدر محتوم لا مناص منه وتسلط العدو الكافر مترتب على ذلك.

- ومع ذلك فقد كانت هناك فترات مضيئة في تاريخ المسلمين وارتبطت هذه دائماً بتجديد الدين وظهور السنة وقمع البدعة كما حدث في عصر عمر بن عبد العزيز ونور الدين محمود زنكي وغيرهم، فإنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، (وإنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) الرعد: 11.

والتاريخ الدولي الحديث -شأنه شأن التاريخ كله- ما هو إلا سلسلة من الصراعات والحروب تعقبها معاهدات يعاد فيها ترتيب القوى في العالم، وسنة الله كما قال تعالى: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ) البقرة: 251.

2- أساس ما يَحْكُمُ علاقات الدول ببعضها هو القوة، لا النيات الحسنة ولا المشاعر النبيلة، والسياسة الدولية هي سياسة القوة، واللغة المتداولة فيها هي لغة القوة، وقد تُغْلَفُ القوة أحياناً بأقبيعة وقفازات ناعمة وكلمات مَعْسُولَة اسمها الدبلوماسية، ولكن تبقى القوة هي الموجة للدبلوماسية من خلف الأقنعة.

والقوة كما أنها تنفع في القتال فإنها تنفع في منعه وفي فرض الإرادة، وهذا يُسمى "سياسة الردع" -ومنه الردع التقليدي والردع النووي وحرب النجوم- والردع هو ما ذكره الله تعالى في قوله: (تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ). ولأجل هذا:

(أ) كان سباق التسلح بين الدول، وكانت الحرب الباردة بينها.

(ب) ولأجل هذا فإن أمريكا مستعدة لدفع مئات ملايين الدولارات لجمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق كروسيا وأوكرانيا لتفكيك أسلحتها النووية.

(ج) وتَفَرَّضُ أمريكا الحَظَرُ على الأسلحة الكيماوية والبيولوجية، وعلى نقل التكنولوجيا التسليحية المتقدمة لمختلف الدول.

(د) ووَضَعَت معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية لتُطَبَّقَ على غيرها من الدول -لا عليها ولا على حلفائها-، واختَرَعَت ما يُسَمَّى بالتفتيش الدَّوْلِي على الأنشطة النووية للدول وذلك لتتحكم وحدّها وحلفاؤها بالردع النووي ولتبقى متربعة على عرش القوة في العالم، ثم تراها لا تتوانى في فرض العقوبات بواسطة الأمم المتحدة على من يخالف ذلك.

- ولأجل تحصيل القوة كانت الدول شديدة الحرص على التحالفات عند خوض المعارك؛ لأن التحالف يزيد القوة، وأستاذة التحالفات بلا منازع في القرون الماضية كانت بريطانيا، وتلقت أمريكا هذا الدرس منها وأتقنته:

ففور خروجها من الحرب العالمية الثانية كإحدى القوتين العظميين في العالم أحاطت الاتحاد السوفيتي بسلسلة متصلة من الأتحلاف [الأطلنطي - المركزي - حلف دول جنوب شرق آسيا الذي مكنها من خوض الحربين الكورية والفييتنامية].

وعندما أرادت أمريكا ضرب العراق في حرب الخليج 1990. 1991م حَشَدَت تحالفاً من ثلاثين دولة، مع مقدراتها لوحدها. وفي الصومال عام 1992م حَشَدَت تحالفاً من عشرين دولة تقريباً.

كلُّ هذا لاعتباراتٍ دولية ولتدفع بجنود الدول الحليفة الضعيفة في المقدمة لتحمل أفدح الخسائر البشرية وَيَسْلَمَ جنود أمريكا.

وبفهم أصل هذه السياسة (سياسة التحالفات) يمكن تفسير كثير من أحداث التاريخ الماضي والمعاصر.

- ولأجل الاحتفاظ بالقوة، ولكي يبقى القوي قوياً والضعيف ضعيفاً، كان المنتصرون يُملون شروطهم على المهزومين في المعاهدات التي تُعَقَّد عقب الحروب بما يحقق هذا، وهذه الشروط نسخة مكررة ومعادة في كل حرب، وهي: تقسيم أرض الدولة المهزومة، وتخفيض عدد أفراد جيشها وتخفيض تسليحها، وإلزام الدولة المهزومة بدفع تعويضات مالية تنهكها لسنوات طويلة، بل أحياناً يُنملي المنتصر سياسته وأيديولوجيته على المهزوم كما فَعَلَت أمريكا باليابان في الحرب العالمية الثانية.

- ولأجل الاحتفاظ بالقوة يَضَعُ المنتصرون أسساً لسياسة العالم بما يحقق مصالحهم، (كعصبة الأمم) عام 1920م ثم (هيئة الأمم المتحدة) عام 1945م، ليتخذ المنتصرون ما يشاؤون من قرارات باسم العالم كله، مع احتفاظهم -دون سائر دول العالم- بما يسمى "حق النقض" (الفيتو).

واليوم تَفَرَّضُ أمريكا ما يسمى بالنظام العالمي الجديد، وهو نظام العصا الأمريكية الغليظة الطويلة المُغْلَفَةُ بأغلفة ناعمة بَرَّاقة اسمها حماية حقوق الإنسان، وحماية الديمقراطية، والشَّرْعِيَّة الدولية، وكلها طواغيت عصرية.

* والناظر في التاريخ يجد أن قوة الدول نوعان: قوة ذاتية وقوة إضافية.

أ - أما القوة الذاتية للدولة فهي محصلة قوتين: قوة معنوية، وأخرى مادية.

ب - وأما القوة المعنوية: فهي أن يكون لدى أهل هذه الدولة عقيدة تدفعهم -ولو فاسدة-، كالتغني بمجد الأجداد، وكادعاء حق شعب معين في أرض؛ كدعوى اليهود في أرض فلسطين، وكعقيدة تَفَوُّق جنس على جنس، كالجنس الأبيض.

وأما القوة المادية: فتعتمد على كثرة المال -الثروة، وبها تتحصل الغُدَد- والعدَد، وقد ذَكَرَها الله تعالى في أكثر من آية كَأَرْكَانٍ للقوة، منها قوله تعالى (كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً) التوبة 69.

والدول في سعيها للقوة تسعى لتكثير أموالها وأعدادها؛ إما بتشجيع التناسل كإيران اليوم، أو بتشجيع الهجرة إليها كدولة اليهود، أو بتوحيد عدة دول في دولة كما فعل بسمارك في ألمانيا 1871م، وأهمها اليوم سعي الأوروبيين للتوحيد.

وفي المقابل: عندما تسعى دولة لإضعاف أخرى فتسعى إلى تقليل أموالها وجيشها وسكانها [كما حصل مع الدولة العثمانية، والألمانية]، وقد يتم هذا بالإبادة الجماعية كما فُعِلَ بالهنود الحمر، وقد يكون هذا بالإرهاب والمذابح الجماعية كما يفعل اليهود، وفي البوسنة وأفغانستان.

- وهناك عناصر أخرى للقوة لعل أهمها: الإدارة الرشيدة للدولة ثم مساحة الأرض وطبوغرافيتها وموقع الدولة وغيرها.
- ب - أما القوة الإضافية للدولة: فهي القوة الناشئة عن تحالفات الدولة مع غيرها من الدول، وعلاقاتها الخارجية. وهذه كلها تعتمد أساساً على القوة الذاتية للدولة.
- 3- والناظر في التاريخ يجد أن القوي يتحايَل بحيل شتى لتسويغ احتلاله بعد تغيير الأسماء؛ وذلك ليفرض على الضعيف ما شاء.
- فأمريكة مرة تتدخل باسم محاربة المخدرات كما في "بنما" واعتقلت رئيسها "نوريجا" في حين كانت تجارة أمريكا مع الصين لمدة مئة سنة في المخدرات.
- ومرة تتدخل أمريكا باسم حماية النظم الديمقراطية كما في "جرينادا"، وكان جورج واشنطن -أول رئيس لأمريكا- قد وصل إلى الرئاسة بالطرق الديمقراطية؟!.
- ومرة تتدخل أمريكا لأسباب إنسانية كما في شمال العراق والصومال، وكان أمريكا كانت إنسانية عندما أبادت ملايين الهنود الحمر من سكان أمريكا الأصليين.
- ومرة ترفع أمريكا سيف محاربة الإرهاب في وجه من لا يلف لَفَّها من الدول، وكان أمريكا لم تكن إرهابية عندما أَلقت القنابل الذرية على اليابان عام 1945، وعندما أبادت سكان فيتنام في حرب دامت عشرين عاماً، وكان دولة اليهود -التي تتعهد أمريكا بسلامتها- إنسانية وغير إرهابية! وهكذا ديدن أمريكا تتهم غيرها بالإرهاب والديكتاتورية، وهي غاطسة حتى الشحمتين في الإرهاب المذموم، من باب: "رمتني بدائها وانسلت".
- 4- الناظر في التاريخ يرى أن الظلم مرتعه وخيم، وأن الظالم لا بد سيأتي يوم الاقتصاص منه، وأن الدول المتجبرة مآلها إلى انهيار عاجلاً أو آجلاً، ويبدو أن أمريكا المتغطرسة لم تَع بعدُ قولهم: "إذا ظلمت من دونك فلا تأمن عذاب من فوقك"، فالله لا يرضى الظلم أن يقع على الكافرين فكيف إذا وقع على عباده الصالحين؟
- 5- الحضارة الغربية حضارة لا أخلاقية، إلهها المال، ومبدؤها "الغاية تبرر الوسيلة". بل الكفار عموماً لا يعرفون إلا إلهاً واحداً هو المال، وفي سبيله يرتكبون أقبح الفظائع، وما الربا إلا وسيلة يمتص بها الأغنياء أموال الفقراء دولاً كانوا أو أفراداً، وكل من عبد غير الله فهو يعبد الشيطان على الحقيقة.
- ففي الإبادة الجماعية مع شعب فيتنام وصلت الخسَّة إلى أن تعهد الرئيس الأمريكي الأسبق نيكسون بإعادة فيتنام إلى العصر الحجري، وقد جاء في بعض التقديرات أن أمريكا أَلقت على فيتنام - خلال الحرب التي استمرت عشرين عاماً (1955 - 1975) - كمية من القنابل أكثر من جميع القنابل التي استخدمتها أطراف الصراع كلها في الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945).
- وأمريكا التي تزعم محاربتها لتجارة المخدرات اليوم كانت تجارتها الوحيدة مع الصين لمدة قرن من الزمان في المخدرات.
- والحصارات الاقتصادية لا تُرهِق إلا أبناء البلاد دون طواغيت الحكم، الذين يَبْقَوْنَ في رفاهية ونعيم.
- هذه هي الحضارة الغربية التي تتغنى بالشعارات الجميلة كَذِباً تُخفي وراءه وجهاً قذراً، فهي حضارة السلب والنهب والإبادة الجماعية وتجارة المخدرات وخيانة العهود.
- 6- والناظر في التاريخ يجد شدة اختلاف الكفار فيما بينهم بما يؤدي إلى إشعال الصراعات المدمرة بينهم، كالحرب العالمية الثانية (1939 - 1945م)، حيث سقط فيها خمسون مليون قتيل في مختلف أنحاء العالم، وسقط عشرة ملايين قتيل في الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918م). وهذا كله مصداقُ قوله تعالى - في الكافرين - (تَحْسِبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى) الحشر 14، وقوله تعالى (وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) المائدة 64.

7- ومع اختلاف الكفار فيما بينهم إلا أنهم يَتَّحِدُونَ عند مواجهة المسلمين، كما كان يوحدهم بابا روما في الحروب الصليبية الأولى، وكما كانوا يتحدون فيما يُسَمَّى بالحلف المقدس عند محاربة الدولة العثمانية.

ولا يتمكن الكافرون من المسلمين إلا إذا فسد المسلمون من داخلهم أولاً، فقد قال تعالى: (وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) النساء 79، وقال تعالى: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) الشورى 30.

وأخبرنا الحق جل وعلا عن ضعف كيد الكافرين للمؤمنين الخُلُصَاءِ في قوله تعالى: (فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا) النساء 76، وفي قوله: (لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ الْأَذَى ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ) آل عمران 111، وفي قوله: (وَإِنْ تَصِيرُوا تَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا) آل عمران 120، وهي سنة لا تتخلف، وإن حَصَلَ فَلتَخْلَفْ أسبابها.

8- والناظر في التاريخ يرى الدمار الهائل الذي يَصُبُّهُ اللهُ عَلَى الكافرين في مختلف البلدان -والذي لا يُقَارَنُ أبداً بالكوارث التي تُصِيبُ المسلمين-، سواء كان هذا الدمار بسبب الحروب أو بسبب الظواهر الكونية كالزلازل والبراكين والفيضانات والأعاصير والصواعق وغيرها. وهذا الدمار الذي يَحُلُّ بالكافرين في الدنيا هو مصداق قوله تعالى: (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ) الرعد 31، وقال تعالى: (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) السجدة 21. فانظر كيف يعذبهم الله في الدنيا قبل الآخرة لعلهم يتوبون؟ وهذا لا يتعارض مع إمداد الله لهم استدراجاً.

9- الناظر في التاريخ -خاصة الإسلامي- يرى القواصم تتبعها العواصم، وهذا من لطف الله تعالى بعباده من ناحية، ومن ناحية أخرى لئلا يئس عباده وليعلموا أنه قد يولد الأمل من رحم الأمل، ولكي لا ينسوا أن الأصابع الملتوية قد ترسم خطاً مستقيماً؛ فكم من رجل جَدَّدَ به الله الدين، وأحيا الشعائر، وكم من فئة قليلة غَلَبَتْ فئة كثيرة بإذن الله.

* كل النتائج السالفة تبين لك أهمية دراسة التاريخ، مع ربط وقائعه بالثواب الشرعية التي يُحَصِّلُهَا الدارس من دراسته الشرعية، وقد عَرَفْنَا حكمَ دراسة الواقع من قبل، فما هي حقيقة واقع المسلمين اليوم باختصار؟

* حقيقة الواقع المعاصر بإيجاز:

حيثما يَمُمَّتْ بصرُكَ لا تجد لواقعنا إلا حقيقةً واحدة وهي فتكُ الكفار بالمسلمين فتكاً ذريعاً في شتى المجالات وفي شتى البلدان، مع بغیضة مُسْتَكِنَةٍ في أنفسهم، وهذه حقيقة قرآنية:

- (وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا) البقرة 217،

- (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ) البقرة 109،

وفي مقابل هذا أمرنا الله بإعداد القوة، وأمرنا بغزوهم في عُقْرِ دارهم، وهو جهاد الطلب، وهو من أنواع الحرب الوقائية، قال تعالى (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) التوبة 5، وبهذا ظل المسلمون أعزة، وكان الكفار يتربصون للإيقاع بالمسلمين، وفشلوا مرات عديدة، إلا أنهم -وبسبب تفریط المسلمين في إعداد القوة وفي الجهاد- تَمَكَّنُوا في الوقت الحاضر من الإيقاع بالمسلمين والفتك بهم، هذا الواقع الذي يعبر عنه بصدق قول النبي صلى الله عليه وسلم (يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا! فقال قائل: ومن قِلَّةٍ نحن يومئذ؟! قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حبُّ الدنيا وكرهية الموت) (4)، وفي رواية الإمام أحمد: (حُبُّكم الدنيا، وكرهيتكم القتال). وأي ذل وهوان أشد من أن يبلغ عدد المسلمين 1200 مليون نسمة -حوالي خمس سكان العالم- وليست لهم دار إسلام يأوون إليها ولا إمامٌ للمسلمين يلوذون به، غثاء كغثاء السيل.

وقد بدأ فتك الكفار بالمسلمين منذ أكثر من مئة سنة، مع الضعف الشديد الذي دَبَّ في جسد الدولة العثمانية حكومتها وورعية، فأخذ الكفار في نهش هذا الجسد وتمزيقه وإفساده حتى لا تقوم له قائمة، وصار الجهاد جهاد دفع واجباً على الأعيان.

* وقد اتَّخَذَ فَتْكُ الكفار بالمسلمين عدَّةَ صور تم التخطيط لها بدقة حتى تُحَقِّق أهدافها، ومن هذه الصور:

1- التقسيم: على مبدأ "فَرَّقْ تَسُدْ"، ولو اتحدت هذه الدول في دولة واحدة كما كانت في ظل الخلافة الإسلامية لتكونت منها قوة عظمى بشرية واقتصادية وعسكرية.

وقد حاولوا ترسيخ أسباب الضعف والانقسام من خلال:

أ- مشاكل الحدود: فتركوا عند تقسيم دولة الخلافة مناطق محايدة ليتم النزاع عليها.

ب- اختلاف الأنظمة والأيدولوجيات في الدول المتجاورة.

ج- تمليك الأقليات -الدينية أو العائلية- زمام الحكم في البلاد: [موارنة- نصيرية- أَسْرَ خليجية-] والتي ستحول دون إنشاء جيوش قوية خشية الانقلاب عليها، وبالمقابل ترسيخ علاقتها مع الكافر شرقياً أو غربياً والنتيجة هي أن تظل البلاد ضعيفة مستنزفة مالياً، وهذا هو الواقع، لنلا ينطبق عليها المثل: "سَمْنٌ كَ***ك يَأْكُلُكَ".

إلا أن حكام العرب -غالباً- بمن فيهم بلاد العراق اليوم يَصُدِّقُ فيهم المثل: "بَطْنٌ جَائِعٌ وَوَجْهٌ مَذْهُونٌ"، وَيَصُدِّقُ فيما بينهم وَيَبِينُ شعوبهم قولهم: "جَوَّعَ كَلْبُكَ يَتَبَعُكَ"، فمتى تصحو الشعوب النائمة؟!

د- محاربة أي محاولة للوُحدة -أو حتى التعاون المثمر- بين هذه الدول رغم كفرها.

2- إحلال حكومات لادينية في هذه الدول الضعيفة في مناحي الحياة الداخلية والخارجية لَسَلْخِ المسلمين عن دينهم، وكم وظَّفُوا الدين لِيُنْخَرُوا الدين باسم الدين، فصار الدين تابعاً للسياسة، بدل أن يكون العكس.

3- إنشاء دولة اليهود في قلب العالم العربي، بل في قلب العالم الإسلامي.

4- إفساد الشعوب المسلمة بالزذيلة والخلاعة.

5- حرمان بلاد المسلمين من أسرار التكنولوجيا المتقدمة، فضلاً عن إنتاجها، ومحاربة أي محاولة لإنشاء الصناعات الثقيلة أو المتقدمة بها.

6- استنزاف خيرات المسلمين من خلال صور عديدة:

- استنزاف العقول النابهة من بلاد المسلمين؛ ليقوم هؤلاء بخدمة الكفار ولتظل بلاد المسلمين متخلفة محرومة من خبراتهم.
- حصول الدول الكبرى على المواد الأولية كالبترول وغيره بأسعار زهيدة، مع بيع سلعتها المختلفة في أسواق الدول العربية بأسعار عالية.

- إشعال الخلافات أو الحروب وما يتبعه من بيع الأسلحة والدمار الشامل ثم إعادة الإعمار بواسطة شركات الدول الكبرى، ومحصلة هذا كله انتقال أموال المسلمين إلى خزائن قوى الكفر العالمية. وقد بلغت خسائر عشرين دولة عربية - بسبب حرب الخليج بين العراق والكويت 1990/1991م- مبلغ ستمائة وثمانين ألف مليون دولار.

- تحويل أموال بلاد المسلمين الغنية إلى خزائن قوى الكفر العالمية عن طريق صورتين:

أ- بادخار الفوائد في بنوكهم لِمَا توفره من سرية وأمان حسب دعايتهم، وذلك في مقابل عدم الاستقرار في بنوك المنطقة العربية وعدم استقرار قوانينها وأنظمة الحكم فيها. وتبلغ مدخرات العرب في البنوك الغربية -في بعض التقديرات- ستمائة ألف مليون دولار، لو أُنفِقَتْ في التنمية والتعمير داخل بلاد العرب والمسلمين لأغنت كثيراً من أهلها، ولأُحْدِثَتْ نهضة زراعية وصناعية ببلادهم.

ب- بإغراق الدول الفقيرة في الديون الخارجية الربوية -والتي تذهب إلى جيوب الحكام الخونة المفسدين- ثم تظل هذه الدول تدفع أقساط هذه الديون وفوائدها لعشرات السنين بما يبلغ أضعافَ أضعافِ القرض الأصلي، وبما يُخَرِّبُ اقتصاد هذه الدول، بل يجعل هذه الدول واقتصادها تحت سيطرة الدائنين.

إن معظم مشاكل العالم الإسلامي يرجع إلى فساد الإدارة الحكومية من أكبر رأس إلى أصغر رأس، فالكبير يسرق السرقة الكبيرة ويتعاطى الرشوة والعمولات الكبيرة، والموظف الصغير يسرق ويرتشي دون ذلك، والشعوب الإسلامية تتضور جوعاً، وهذه أدنى العقوبات القدرية التي يُنزلها الله بهذه الشعوب الفاسقة بقعودها عن الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبمتابعتها للحكام الطواغيت، قال تعالى: (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) الزخرف 54، وقال تعالى: (فَبَطَلُوا مِنْ الدِّينِ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُجِلَّتْ لَهُمْ) النساء 160، فالظالمون يحرمهم الله من الطيبات تحريماً قديراً وإن لم تُحرَمْ عليهم شرعاً، ذكر هذا ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله، وهذا التحريم القدري يكون بالفقر والجوع أو بالمرض وغيرها.

- هذه هي حقيقة واقع المسلمين المعاصر، وهي فتك الكفار بهم فتكاً ذريعاً في شتى المجالات وشتى البلدان، بمعاصي المسلمين وبذنوبهم؛ وإن من أكبر الذنوب القعود عن الجهاد في سبيل الله تعالى، أو عن الإعداد -على أقل تقدير-، وكما يكون الناس يُؤلَّى عليهم، قال تعالى: (وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) الأنعام 129، وبالمقابل فإن الله ليس بحاجة ويؤيد دينه بالرجل الفاجر كما صح في الحديث، وسيُعْلِي أمره، فاسع أن تكون ممن يُعْلِيه، ولا تخشَ على دين رب العالمين بقدر ما تخشى أن لا تكون من حاملي ألوته.

عَصِينَا وَخَالَفْنَا فَعَاقِبَتْ عَدْلًا وَحَكُمْتَ فِينَا الْيَوْمَ مِنْ لَيْسَ يَرْحَمُ

فَهَلْ مِنْ فِئَةٍ؟

وَمَنْ لَا يَعْرِفُ لِمَاذَا انْهَزَمَ لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَصِرُ؟

- وسنجد إن شاء الله في هذه السلسلة "من خفايا التاريخ" وقائع تؤكد هذه الدراسة الموجزة، ولعلنا نخرج منها بفوائد يمكن أن نضيفها إلى البحث السالف في هذه الحلقة.

-انتهت الحلقة الثانية-

الحلقة الثالثة

"وقافون عند حدود الله!"

وَمِنْ وَعَى التَّارِيخِ فِي صَدْرِهِ * أَضَافَ أَعْمَاراً إِلَى عُمرِهِ

الحمد لله على توفيقه، عنوان حلقتنا:

لقد هَزَّتْنِي هذه الحادثة من أعماقي بما فيها من عِبَرٍ، وأخذت بمجامعي، وتَمَلَّكَتْ عَلَيَّ مشاعري، حتى أَحَسَسْتُ بِنَشْوَةٍ جعلتني أُحَلِّقُ في سماء السالفين بقصصهم التي كان منها ما يأسر الألباب، ومنها ما يُطْرِبُ الأسماع ويستوقف حواسك جميعها إجلالاً لأصحابها، وإكباراً لكريم صنيعهم.

وقد سمعتُ خلاصتها المشوِّهة وأنا خارج العراق فَفَعَلْتُ بي كل هذا، فكيف إذا علِمْتَ أنني الآن جالسٌ مع الشيخ "الزرقاوي" وعددٍ ممن عاصرَ القصةَ فراحَ كُلُّ يَجُودٍ بما استَحْضَرْتَهُ ذَاكِرْتُهُ، وأنا لا أفنأ أسجل...؟

حتى أنني سَجَلْتُ كلمةً للشيخ "أبي مصعب" في غمرة تَحَدُّثِهِ عن الحادثة فَكَتَبْتُهَا خِلْسَةً عن أعين الرقباء -وقتها- إذ رأيتها خرجتُ من الشيخ عفويةً قلبيةً دون تأنيقات المسؤولين الرسميين ولا مدهانة الدبلوماسيين المتناقضين، بساطةً مع صراحةٍ لم تتدنَّسْ بلَوْنَاتِ البهاج الجوفاء، كلمةً لعلها كان لها الدور الأكبر في تصميمي لوضع هذا العنوان في هذه الحلقة هكذا:

"وقافون عند حدود الله!"

كانت كلمته العفوية القلبية: "خَرَجُوا وَخَرَجَ خَلْقِي معهم"!!!!

والقصة وما فيها أن ثلاثة أمريكيين مع مترجمٍ عراقي أَلْقَتِ القبضَ عليهم إحدى دوريات المجاهدين التي تَجُوبُ أحياء الفلوجة مُرَاقِبَةً للوضع الأمني ومحافظةً على سلامة السكان من أي اعتداء، إلا أن أحدهما استرالي الأصل والثاني إيرلندي الأصل، فأخذوهما ووضعوهما في "غوانتانامو"!

وهو مكانٌ اعتاد فيه المجاهدون أن يضعوا فيه الأسرى قبل تأمين مكان خاص للأسرى، وشاع بينهم هذا الاسم نكايَةً في أمريكا التي أَسَرَتْ كَثِيراً من أبناء الأمة الإسلامية وَزَجَّتْهُمْ في "كوبا".

وقد شَرَعَ لنا ديننا -وكلُّه عدلٌ وإنصافٌ- أن نأسر من أفراد أعدائنا المحاربين لنا مَنْ نشاء بشرط أن لا يكون بيننا وبينهم عهدٌ، وذلك لنفادي أسرارنا الذين عندهم، حتى لو لم يكن المأسور ممن يرتدي بَرَّةَ الجيش النظامي لحظة الأسر، ففي صحيح مسلم (عن عمران بن حصين قال: كانت ثقيف حلفاء لبني عقيل، فَأَسَرْتُ ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وَأَسَرَ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من بني عقيل، وأصابوا معه العُضْبَاءَ، فَأَتَى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الوثاق، فقال: يا محمد! فأتاه فقال: ما شأنك؟ فقال: بما أخذتني وأخذت سَابِقَةَ الحاج؟ -يعني العُضْبَاءَ- فقال: إعظاماً لذلك أخذتُك بجريرة حلفائك ثقيف ثم انصرف عنه، فناده فقال: يا محمد يا محمد! وكان صلى الله عليه وسلم رحيماً رقيقاً، فقال: ما شأنك؟ قال إني مسلم، قال: لو قُلْتَهَا وَأَنْتَ تملكُ أَمْرُكُ أَقْلَحْتَ كُلَّ الفلاح، ثم انصرف فناده فقال: يا محمد، يا محمد! فأتاه فقال: ما شأنك؟ قال: إني جائع فأطعمني وظمآن فاسقني، قال: هذه حاجتك، ففُدِيَ بالرجلين).

وما لَبِثَ الشَّيْخُ "الزرقاوي" أن أَصْدَرَ أَمراً بخياطة 3/ بذلاتٍ برتقالية اللون لهم كما تفعل أمريكا بأبنائنا، فهذا جزاؤهم مثلٌ بمثلٍ، وأما العراقي المتآمر مع أعدائنا فَلْيَنْكَلِ قَدْرَهُ جزاءَ عَمَالَتِهِ مع الكافرين على أبناء أمتة من المسلمين.

- وسارت الأمور ثاني يوم بعد الفجر على أتم ما يرام، وكانت مطالبُ "جماعة التوحيد والجهاد" سهلةً على الأمريكان كبير شأنها عند الشيخ "الزرقاوي":

إخراج أخواتنا المسلمات من سجن "أبو غريب"

- فقلت للشيخ: والمال؟؟ فسارع بحزم ليقول: "المال لا نفكر به!"، يقصد أن مطالبنا أسمى من عَرَضِ دُنْيَا.
- مع أن ديننا شَرَعَ هذا وليس في الأمر غضاضة، ولكن قد تقتضي السياسة الشرعية تصرفاتٍ ظاهرها خشن وباطنها ناعم، أعني فيه خيرٌ عظيم إن شاء الله، وقد جرت سنة الله (لن تَدْعَ شيئاً لله عز وجل إلا أْبْدَلَكَ الله خيراً منه) .
- ولكن ما أن عُرِفَ بهؤلاء الأسرى حتى سارعت الوساطات من هنا وهناك، والترجيات والاستجداءات، حتى أرسل "لواء محمد لطيف" مبعوثاً يُنذِر بأن المدينة ستدمر بسبب هؤلاء!
- فأسر هؤلاء الأمريكيين والتهديد بهم يُشكِّلُ إحراجاً كبيراً لأمريكا خاصةً وأن لهم صلة بسلك الصحافة مما يعني أن الأمر سينتشر انتشار النار في الهشيم في الإعلام الأمريكي بل العالمي، وهذا يعني انخفاض شعبية "بوش" انخفاضاً مُخزِياً، حتى أن أحد المؤفدين للوساطة صرح للمجاهدين بأن "بوش" مهتم بالقضية بنفسه، هذا فضلاً عن أن "مفكرة الإسلام" ذكرت على صفحات الإنترنت أن أحدهما ضابط كبير.
- حقاً إنها عزة للمسلمين أن يُنكَلُوا بعدوهم كما يُنكَلون هم بأبنائنا في طول الأرض وعرضها، عسكريتها ومدنيها -إن جاز التعبير-، إن مثل هذا العمل رغم تشويه الإعلام له ووصفه بالإرهاب -مع أن النبي محمداً قام بمثله-، رغم كل هذا، ورغم خنوع كبار السن من المشايخ والكتّاب الإسلاميين خنوعهم خشيةً على حياتهم إلا أن شباب الأمة يتفاعل معه ويتوقد حماسةً وينتظر لحظة انفجار البركان.
- وفي غمرة الفرحة بهذا الصيد الثمين لتركيعة الإدارة الأمريكية، ولتهشيم صُلْفِها، وتحطيم غَطْرَسِتها، أتت الصدمة القاصمة والمفاجئة حين قال المترجم العراقي: "نحن ما كنا لندخل "الفلوجة" لولا أن فلاناً أَمَّنَّا من سكان الفلوجة واسمه كذا كذا"، - وقد كان هؤلاء آتين من منطقة "المزرعة" التي يعسكر فيها الأمريكان والقريبة من الفلوجة أتوا منها باتجاه الفلوجة-.
- طيب....! وماذا يعني إن كان أحد سكان المدينة ممن لا علاقة له بالمجاهدين ولا روابط معاهدات بينهم، ماذا يعني أن يُؤمَّنهم أصلاً!!! هكذا كان يُفكَّر بعض الإخوة المجاهدين ممن لم يُؤت قسطاً من العلم!
- إلا أن المجاهدين متمثلين بقيادتهم واللجنة الشرعية ما كانت لتتحرك خطوة واحدة إلا بهدي الكتاب والسنة، وكيف تتجرأ على شرع الله وهي التي قامت فيما قامت لتقيم شرع الله وتعلي كلمته، فهيئات أن تبتغي طاعة الله بمعصيته.
- والرائع حقاً في المجاهدين عموماً أنهم إن علموا أن شرع الله كذا وكذا فينتهي عندهم اللجاج ويتلاشى قيل وقال، ويميلون جميعهم صوب شرع الله ميلة واحدة.
- وكان الجواب الشرعي حازماً لا يقبل المساومة فهذا دين الله، وليس دستوراً أرضياً نغيره وقتما نشاء، أو قراراتٍ نيابية تُحلُّ وتُعقد وفق أهواء أربابها!
- فكانت الفتوى: "أطلقوهم!"
- لقد كان الأمر صعباً للغاية أن تقوت من اليد هذه الغنيمة الباردة، حتى أن أحد البسطاء قال: نعصي الله فيهم ثم نتوب، فعقَّب الشيخ بحزم حازم وهو يروي عنه: "حاشي"، حاشا أن نعصي الله ولو في صغيرة مهما كان الخير بادياً في ظاهرها، فباطنه سوء العاقبة والعقاب، منه تعالى.
- وازداد الطين بلّةً، وتوسعت إغراءات الشيطان حينما جاء للمجاهدين خبرٌ من بغداد أن لا تُطلقوا سراحهم لأنهم ضباط.... وكان الإخوة المجاهدون على وشك الإطلاق، ولكنَّ القضية محسومةً مهما كان وزنهم السياسي... إنه دين الله! وشتان بين ميوعات السياسة المعاصرة وبين وضوح مبادئ الإسلام العظيم.

نعم تم التأكد من صحة ادعائهم أنهم مُؤْمِنُونَ فكان الأمر كما قالوا، واحد من سكان المدينة المسلمين ممن لا علاقة له بـ "جماعة التوحيد والجهاد" أعطاهم الأمان، وبناءً عليه دخلوا المدينة، والنتيجة أنه ما عادَ يجوزُ شرعاً مَسَاسُهُمْ بسوءِ (المسلمون تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَذْنَاهُمْ، وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ) و(قد أَجْرْنَا مَنْ أَجْرْتَ يَا أُمَّ هَانِي)، وهذه إحدى صور عظمة هذا الدين الخالد، تكتب بماء الذهب على خدِّ الزمان.

— وكان فيما قاله الشيخ الزرقاوي وهو يسرد القصة: "الله يهديك يا "فلان" — وذكر اسم الذي أَمَنَهُمْ—، وعلى مرارة تركناه .. استجابةً للحكم الشرعي... خرجوا وخرج حلقي معهم... ولكن إنه دين الله... ومعاذ الله أن نتعدى حدود الله!!" حقاً ما أروعها من كلمة: "إنه دين الله... ومعاذ الله أن نتعدى حدود الله"، فأين أنتم يا أرباب الدساتير الأرضية يا من تُغَيِّرُونَ إلهكم الأرضيَّ وَفَتْمَا تشاؤون وكلُّه باسم الشعب إسقاطاً للرب؟

قلت في نفسي: يا ويح خصوم "جماعة التوحيد والجهاد" من التيارات الإسلامية لو كانت حكيمة لكان من أسهل ما يكون أن تُقنَع جماعة التوحيد والجهاد، وما عليها إلا أن تثبت لها بالدليل من الكتاب والسنة على منهج السلف الصالح، سواء في مسائل كبار كمسائل التكفير والإيمان، أو في مسائل فقهية من التعبديات، أو حتى في رؤية واقعية للتغيير، إذًا فكيف يتهمون الجماعة بالتشدد والغلو لمجرد مخالفتهم لهم في اجتهادهم مع أنهم ما أتوا فناقشوا أدلتهم وحجتهم الشرعية، فتباً لمن يكيل الاتهامات جُزافاً، وتلك شكاة ظاهر عن "جماعة التوحيد والجهاد" عارها.

أين أنتم يا خصوم "جماعة التوحيد والجهاد" ممن ينادون بالإسلام... ألا تريدون أن تكسبوا "جماعة التوحيد والجهاد" إلى صفكم؟ ألا تريدون أن تتخلى عن كثير من تصرفاتها التي تصيكم بالغيث؟! إذًا تعالوا فالحل سهل للغاية... فقط أحضروا لهم الكتاب والسنة وأظهروا الخلل في استنباطاتهم أو منهجهم وتنهي القضية.

تعالوا يا أصحاب الاعتدال!!!! وناقشوهم بهذا، وإني على يقين أنكم إذا أثبتُّم لهم بالدليل فهم أهل الدليل، ودينُ الله أحبُّ إليهم من إزهاق الأرواح.

فالأمر بسيط للغاية وما عليكم إلا أن تُثَبِّتُوا لهم أن الله ورسوله هكذا أمراً أو هكذا نهياً وستجدونهم جميعاً من أميرهم إلى مأمورهم يسرون معكم في زورق واحد.

وإن لم تفعلوا فهيا سيروا أنتم معهم في زورقهم.

هذه هي جماعة "التوحيد والجهاد" فهلموا أيها الشباب إلى ساحات الوغى، واقتربوا أيها المتهمون لهم ... اقتربوا لتروا الحقائق عن كُتُب فليس راءِ كمن سَمِعَا.

يا قومنا اتقوا الله الذي سيسأل المفترى عن افتراءه ف (من قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله رَدْعَةَ الْخَبَالِ حتى يخرج مما قال) كما في سنن أبي داود.

أين التشدد عند مَنْ منهجه: اتباع قال الله وقال رسوله؟ أين التشدد فيمن يَنْشُدُ خطأ سلفه الصالح؟

إننا نريد إرضاء الله ولا نخترع أحكاماً لم يقل بها أحد من أئمتنا السالفين، فكيف يُدْعَى أننا نُسَخِّطُ الله ونحن نبتغي رضاه، فأَيُّ أرضٍ تُقْلِنَا وأَيُّ سماءٍ تُظْلِنَا إن نحن تَعَدَّيْنَا شَرْعَ الله أو ساهمنا في إراقة دم مسلمٍ ولو بِشَطْرِ كلمةٍ إلا في حَدٍّ من حدود الله. وهكذا يا أمراء الجماعات الإسلامية أروهم إسلامنا بآرك الله فيكم، أروهم إسلامنا كاملاً غير منقوص، ولا تُروهم جانباً واحداً قد يَنْفَرُونَ منه لوحده.

— ومع فاجعة الصدمة لم يكن الأسرى مُصَدِّقِينَ أنهم سَيُطْلَقُونَ وبسبب شريعة الإسلام... ولسانُ حالهم: أَيُّ شريعةٍ هذه، أَيُّ شريعةٍ هذه!!!!

نعم إنها شريعتنا الغراء لا ظلم لديها لأنها من لَدُنْ عادِلٍ لا يَظْلِمُ، وما نحن إلا جنودٌ نطبق أوامر الله في أرضه. قال لهم أحد الإخوة أثناء إطلاعهم: لَقَتَلَكُم أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَي شَيْءٍ إِلَّا أَنَا سَنُرجِعْ لَكُمْ كل شيء ولو كان قطعة "بطارية"! فأعطاه الأخ حتى ثَمَنَ الحذاء الذي أَخَذَ منه، والرجل امتلأ تعجباً من فَرْقِهِ إلى قدميه!!

وأما المترجم العراقي فحدّثه "أبو البراء" -رحمه الله قُتِلَ في عملية المطار في الانسحاب- قال له: أنت هل عندك أخوات؟ ... أتقبل أن ينتهك الأمريكان عرضها؟ فكيف تُقْبَلُ بما تفعله معهم؟! فصار الرجل يبكي ثم قال: ما عدتُ لأعمل مع الصحفيين بعد الآن وتاب... وصار يصلي! والله أعلم بصدق توبته، ولنا في هذا الظاهر.

وأما الذي أَمَنَهم فقد أصدر الشيخ الزرقاوي أمراً بأن يُؤدَّبَ بنوعٍ من التعزير حتى لا يُعيدَ الكَرَّةَ لوحده في التأمين، وأن يَتْرَكَ الأمرَ لأهل الحَلِّ والعَقْدِ في مدينته.

ولسان حال الشيخ الزرقاوي: لأن يَكْتُبَنِي التاريخ مطلق غنيمة ستمسك أمريكة من نقطة ضعفها أحبُّ إِلَيَّ من أن يكتبني "غادرٌ بمن أَمَنَهم الله"، وذلك على غرار قول الملا عمر حفظه الله: لأن يكتبني التاريخ مُكسِّرُ الأصنام أحبُّ إِلَيَّ من أن يكتبني: حافظ الأصنام... أو كما قال حفظه الله.

فالتاريخ يسجل، ولن لم تُنَشَرْ صحفُه في هذه الدنيا، فسيأتي يومٌ يُعَثَّرُ فيه ما في القبور.

* لقد أثارت هذه القصة أشجاني فذكرتني أول ما ذكرتني بعمر بن الخطاب الذي رُبط اسمه بالعدل وقول الحق لا يخاف لومة لائم، ويحزم لا يعرف اللين، ولكنه مع هذا كان يتصف بصفة قد يتعجب المرء أن تجتمع مع صفاته الأخرى، هذه الصفة ستعرفها بعد أن تقرأ هذه القصة من صحيح البخاري: [باب خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين العرف المعروف ... أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ ... فَتَزَلَّ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ "الْحُرُّ بْنُ قَيْسٍ" وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُذَنِّبُهُمْ عَمْرٌ، وَكَانَ الْقَرَاءُ أَصْحَابُ مَجَالِسِ عَمْرٍ وَمَشَاوِرَتِهِ كَهَوْلًا كَانُوا أَوْ شَبَابًا فَقَالَ عُيَيْنَةُ لَابْنِ أَخِيهِ: يَا بَنَ أَخِي لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ، قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَأْذِنَ الْحُرُّ لِعُيَيْنَةَ فَأْذَنَ لَهُ عَمْرٌ: فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هَيْ يَا بَنَ الْخَطَّابِ!!! فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزْلَ وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ!!!! فَغَضِبَ عَمْرٌ حَتَّى هَمَّ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (خُذِ الْعَفْوَ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ. فَوَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عَمْرٌ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ].

* ثم ذكرتني قصتنا بإحدى روائع التاريخ الإسلامي صدرت من حفيد الفاروق أعني "عمر بن عبد العزيز"، ففي فتوح البلدان للبلاذري 411/1: [لَمَّا اسْتُخْلِفَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَقَدْ عَلَيْهِ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ "سَمَرْقَنْدٍ" فَرَفَعُوا إِلَيْهِ أَنْ "قَتِيْبَةً" دَخَلَ مَدِينَتَهُمْ وَأَسْكَنَهَا الْمُسْلِمِينَ عَلَى غَدَرٍ، فَكَتَبَ عَمْرٌ إِلَى عَامِلِهِ يَأْمُرُهُ أَنْ يُنْصَبَ لَهُمْ قَاضِيًا يَنْظُرُ فِيمَا ذَكَرُوا؛ فَإِنْ قَضَى بِإِخْرَاجِ الْمُسْلِمِينَ أُخْرِجُوا!!!!]

فَنَصَبَ لَهُمْ ... "الباجي" فَحَكَمَ بِإِخْرَاجِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنْ يُنَابِذُوهُمْ عَلَى سِوَاءِ فِكْرَةِ أَهْلِ مَدِينَةِ "سَمَرْقَنْدٍ" الْحَرْبِ وَأَقْرُوا الْمُسْلِمِينَ فَأَقَامُوا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ].

سبحان الله، بكل بساطة يُرْفَعُ الأمرُ إِلَى الْقَضَاءِ الْأَعْلَى لِيَحْكُمَ بَيْنَ كُلِّ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ وَبَيْنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، أليس هذا وقوفاً مع حدود الله؟

* وثالث القصص التي استحضرتها إزاء قصتنا في "الفلوحة" والتي تتجلى فيها مظاهر أطراح أهواء النفس وشهواتها أمام حُكْمِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ، هي قصة تلك الصحابية الجليلة أم خُلاَّدٍ فِيمَا أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي السَّنَنِ: (باب فضل قتال الروم على غيرهم من الأمم

... جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقال لها: "أم خلاد" وهي مُنْتَقِبَةٌ تَسْأَلُ عَنْ ابْنِهَا وَهُوَ مَقْتُولٌ، فَقَالَ لَهَا بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: جِئْتِ تَسْأَلِينَ عَنْ ابْنِكَ وَأَنْتِ مُنْتَقِبَةٌ!!! فَقَالَتْ: إِنَّ أُرْزَأُ ابْنِي فَلَنْ أُرْزَأُ حَيَّائِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ابْنُكَ لَهُ أَجْرُ شَهِيدَيْنِ، قَالَتْ: وَلَمْ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ قَتَلَهُ أَهْلُ الْكِتَابِ، وَالْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ، فَلِلَّهِ دَرَاهِمٌ مِنْ امْرَأَةٍ مَا مَنَعَتْهَا الْمَصِيبَةُ مِنْ حِفْظِ دِينِهَا وَحَيَاتِهَا.

— هَذَا هُوَ تَارِيخُنَا أَيُّهَا الْغَزَاةُ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ آبَاؤُنَا، قَدْ بَيَّضُوا وَجْهَ التَّارِيخِ، فَأَرُونَا آبَاءَكُمْ، أَرُونَا أَنْفُسَكُمْ... أَوْ دَسُوا رُؤُوسَكُمْ فِي تَرَابِ الْخَجَلِ.

فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَمْنَا * نَبْتَغِي رَفْعَ اللَّوَاءِ

مَا لِحَزْبٍ قَدْ عَمَلْنَا * نَحْنُ لِلدِّينِ فِدَاءِ

—انتهت الحلقة الثالثة—

الحلقة الرابعة

مقاتلة الشيعة في العراق: الحكم، والحكمة

(ملف خاص بشيعة العراق)

وَمَنْ وَعَى التَّارِيخَ فِي صَدْرِهِ * أَضَافَ أَعْمَاراً إِلَى عُمْرِهِ

إِذَا عُرِفَ السَّبَبُ بَطَلَ الْعَجَبُ!!!

هكذا قلتُ لنفسي أعاتبها بعد أن تجلَّى جزءٌ يسيرٌ من حقيقة موءودة، حقيقة اشتركت في دسّها أيادي الكفر مع العمالة، أضفّ إليها يداً بريئة ساهمت من غير قصدٍ -أو بحسن نية- في تكميم فم الحقيقة وخنق أنفاسها، وأعني: يد المجاهدين الذين عابثوا الحقائق فلم يسرعوا إلى كشف ما تيسر منها على مرأى ومسمع الدنيا، أو يد أحد الكتّاب أو الإعلاميين الإسلاميين ممن يُمكنه الوصول إلى أرض العراق ليُجلّي للمسلمين ولو شيئاً من هذه المسكينة: "الحقيقة الموءودة".

وكنت من قبلُ خارج العراق كغيري أتلقُ أخبارَ المجاهدين من الإذاعات غالباً، وتنتهي إلى سمعي أنباء قتلى الروافض ثم صيحات الاستنكار من أبناء السنة، ودعاة الوحدة.

وإن المتصفح بإنصافٍ لتاريخ وعقائد الرافضة لن تخفى عليه كثيرٌ من خفايا التاريخ عن السيرة السوداء لشيعة إيران "الرافضة"، سواء في عقائدهم أو في فتكهم بأبناء السنة، من بدايات تاريخ الإسلام حتى أيامنا الحالية، مما حدا بكبار علمائنا الأثبات من أهل السنة من خير القرون لينطقوها صريحة لا لبس فيها في حكمهم عليهم ما بين تبديع وتضليل وتسفيه لسائر انحرافاتهم ومعتقداتهم، إلى تكفير صريح لغلاتهم بحسب ما تلبس به الفرد الشيعي من اعتقادات أو أقوال أو أفعال، وإليك أمثلة:

1- الإمام مالك: روى الخلال عن أبي بكر المروزي قال: سمعت أبا عبد الله يقول: قال مالك: الذي يشتم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ليس لهم اسم، أو قال: نصيب في الإسلام. السنة للخلال (2 / 557).

وقال ابن كثير عند قوله تعالى: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا...): [ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمة الله عليه في رواية عنه تكفير الروافض الذين يُغضون الصحابة رضي الله عنهم قال: لأنهم يُغيظونهم ومن غاظ الصحابة رضي الله عنهم فهو كافر لهذه الآية ووافقه طائفة من العلماء رضي الله عنهم على ذلك]. تفسير ابن كثير (4 / 219).

وقال القرطبي في تفسيره: (لقد أحسن مالك في مقالته، وأصاب في تأويله، فمن نقص واحداً منهم أو طعن عليه في روايته فقد رد على الله رب العالمين وأبطل شرائع المسلمين). (16 / 297).

2- الإمام أحمد: رُوِيَ عَنْهُ رَوَايَاتٌ عَدِيدَةٌ فِي تَكْفِيرِهِمْ..... قال الخلال: أخبرني عبد الملك بن عبد الحميد قال: سمعت أبا عبد الله قال: مَنْ شَتَمَ أَخَافُ عَلَيْهِ الْكُفْرَ مِثْلَ الْروافضِ، ثم قال: مَنْ شَتَمَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا نَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ مَرَّقَ عَنِ الدِّينِ. السنة للخلال (2 / 557 - 558). وقال أخبرني عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: سألت أبا عن رجلٍ شَتَمَ رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما أراه على الإسلام. قال ابن عبد القوي: (وكان الإمام أحمد يُكفر مَنْ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ -أي الصحابة- ومن سَبَّ عائشة أم المؤمنين ورمأها مما برأها الله منه وكان يقرأ: (يَعْظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ). كتاب "ما يذهب إليه الإمام أحمد" ص 21.

3- وفي خلق أفعال العباد ص 125 للبخاري، وبينما كان يذكر أقوال العلماء فيمن يقول بخلق القرآن: (قال أبو عبد الله: ما أبالي صليت خلف الجهمي والرافضي، أم صليت خلف اليهود والنصارى، ولا يُسلم عليهم ولا يُعادون ولا يُنَاكَحون ولا يشهدون ولا تؤكل ذبائحهم).

4- عبد القاهر البغدادي: (وأما أهل الأهواء من الجارودية والهشامية والجهمية والإمامية الذين كفّروا خيار الصحابة ... فإننا نكفّرهم، ولا تجوز الصلاة عليهم عندنا ولا الصلاة خلفهم). "الفرق بين الفرق" ص 357 . وقال: (وتكفير هؤلاء واجب في إجازتهم على الله البدء، وقولهم بأنه يريد شيئاً ثم يبدو له، وقد زعموا أنه إذا أمر بشيء ثم نسخه فإنما نسخه لأنه بدا له فيه... وما رأينا ولا سمعنا بنوع من الكفر إلا وجدنا شعبة منه في مذهب الروافض). الملل والنحل ص 52-53 .

5- ابن حزم الظاهري: (وأما قولهم -يعني النصارى- في دعوى الروافض تبديل القرآن فإن الروافض ليسوا من المسلمين، إنما هي فرقة حَدَثَ أولها بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة .. وهي طائفة تجري مجرى اليهود والنصارى في الكذب والكفر). الفصل في الملل والنحل (213/2). وقال: (ولا خلاف بين أحد من الفرق المنتمية إلى المسلمين من أهل السنة، والمعتزلة والخوارج والمرجئة والزيدية في وجوب الأخذ بما في القرآن المتلو عندنا.. وإنما خالف في ذلك قومٌ من غلاة الروافض وهم كفار بذلك مشركون عند جميع أهل الإسلام، وليس كلامنا مع هؤلاء وإنما كلامنا مع ملتنا). الإحكام لابن حزم (96/1).

وفي 208/2: [لا بد من الرجوع إلى الحديث ضرورة، ولو أنّ امرأً قال: لا يُنْقَدُ إلا ما وجدنا في القرآن لكان كافراً بإجماع الأمة، ولكان لا يلزمه إلا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل وأخرى عند الفجر؛ لأن ذلك هو أقل ما يقع عليه اسم صلاة ولا حد للأكثر في ذلك، وقائل هذا كافر مشرك حلال الدم والمال، وإنما ذهب إلى هذا بعض غالية الرافضة ممن قد اجتمعت الأمة على كفرهم].

6- الإسفراييني: نَقَلَ جملةً من عقائدهم ثم حَكَمَ عليهم بقوله: (وليسوا في الحال على شيء من الدين ولا مزيد على هذا النوع من الكفر إذ لا بقاء فيه على شيء من الدين). التبصير في الدين ص 24 - 25.

7- أبو حامد الغزالي، قال: (ولأجل قصور فهم الروافض عنه ارتكبوا البدء، ونقلوا عن علي رضي الله عنه أنه كان لا يُخْبِر عن الغيب مخافة أن يندو له تعالى فيه فيغيره، وحكوا عن جعفر بن محمد أنه قال: ما بدا لله شيء كما بدا له إسماعيل أي في أمره بذبحه .. وهذا هو الكفر الصريح ونسبة الإله تعالى إلى الجهل والتغيير). المستصفى للغزالي (110/1).

8- القاضي عياض: (نقطع بتكفير غلاة الرافضة في قولهم إن الأئمة أفضل من الأنبياء). وقال: (وكذلك نكفر من أنكر القرآن أو حرفاً منه أو غير شيئاً منه أو زاد فيه كفعل الباطنية والإسماعيلية).

9- السمعاني: (واجتمعت الأمة على تكفير الإمامية، لأنهم يعتقدون تضليل الصحابة وينكرون إجماعهم وينسبونهم إلى ما لا يليق بهم). الأنساب (341/6).

10- ابن تيمية: (من زعم أن القرآن نقص منه آيات وكُتِمَتْ، أو زعم أن له تأويلات باطنة تسقط الأعمال المشروعة، فلا خلاف في كفرهم. ومن زعم أن الصحابة ارتدوا بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام إلا نفرًا قليلاً لا يبلغون بضعة عشر نفساً أو أنهم فسقوا عامتهم، فهذا لا ريب أيضاً في كفره؛ لأنه مكذّب لما نصّه القرآن في غير موضع من الرضا عنهم والثناء عليهم. بل من يشك في كفر مثل هذا فإن كفره متعين؛ فإن مضمون هذه المقالة أن نقلة الكتاب والسنة كفار أو فساق وأن هذه الآية التي هي: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) وخيرها هو القرن الأول، كان عامتهم كفاراً، أو فساقاً، ومضمونها أن هذه الأمة شر الأمم، وأن سابق هذه الأمة هم شرارها، وكُفِّرَ هذا مما يُعَلِّمُ بالاضطرار من دين الإسلام). الصارم المسلول ص 586 - 587. وقال أيضاً عن الرافضة: (شرٌّ من عامة أهل الأهواء، وأحقُّ بالقتال من الخوارج). مجموع الفتاوى (482/28).

وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى الفقهية 61/32 حين سئل عن الرافضة: "هل تُزَوَّج"، فأجاب: [الرافضة المحضة هم أهل أهواء وبدع وضلال، ولا ينبغي للمسلم أن يزوجه موليته من رافضي وإن تزوج هو رافضية صح النكاح إن كان يرجو أن تتوب وإلا فترك نكاحها أفضل لئلا تُفسد عليه ولده والله أعلم].

11- وقال الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء 511/14: [كل من أحب الشيخين فليس بغال، بل من تعرَّض لهما بشيء من تنقُّص فإنه رافضي غال، فإن سبَّ فهو من شرار الرافضة، فإن كفر فقد باء بالكفر واستحق الخزي].
وقال في 458/16 وهو يتحدث عن عثمان وعلي رضي الله عنهما: [الأفضل منهما بلا شك أبو بكر وعمر؛ من خالف في ذا فهو شيعي جلد، ومن أبغض الشيخين واعتقد صحة إمامتهما فهو رافضي مقيت، ومن سبَّهما واعتقد أنهما ليسا بإمامي هدى فهو من غلاة الرافضة أبعدهم الله].

12- ابن كثير في البداية والنهاية (252/5) ساق الأحاديث الثابتة في السنة، والمتضمنة نفي دعوى "النص والوصية" التي تدعيها الرافضة لعلي رضي الله عنه ثم عقَّب عليها بقوله: [ولو كان الأمر كما زعموا لَمَا رَدَّ ذلك أحدٌ من الصحابة فإنهم كانوا أطوع لله ولرسوله في حياته وبعد وفاته من أن يفتاتوا عليه فيُفقدوا غير مَن قَدَّمه، ويؤخروا من قَدَّمه بنصه، حاشا وكلا، ومَن ظنَّ بالصحابة رضوان الله عليهم ذلك فقد نسبهم بأجمعهم إلى الفجور والتواطؤ على معاندة الرسول صلى الله عليه وسلم ومضادته في حكمه ونصه، ومن وصل من الناس إلى هذا المقام فقد خلَّع ربة الإسلام، وكفر بإجماع الأئمة الأعلام وكان إراقة دمه أحل من إراقة المدام].

وفي 211/14 قال: [في صبيحة قُتِلَ بسوق الخيل حسن بن الشيخ السكاكيني على ما ظَهر منه من الرفض الدال على الكفر المحض شَهد عليه عند القاضي شرف الدين المالكي بشهادات كثيرة تدل على كفره وأنه رافضي جلد فمن ذلك: تكفير الشيخين رضي الله عنهما، وقذفه أئمة المؤمنين عائشة وحفصة رضي الله عنهما، وزعم أن جبريل غلط فأوحى إلى محمد وإنما كان مرسلاً إلى علي وغير ذلك من الأقوال الباطلة القبيحة، قَبَّحه الله، وقد فعَل].

13- الحافظ السيوطي في "تدريب الراوي": [الصواب أنه لا يُقبَلُ رواية الرافضة وساب السلف كما ذكره المصنف في الروضة -يقصد النووي رحمه الله- ... لأن سباب المسلم فسوق، فالصحابة والسلف من باب أولى، وقد صرح بذلك الذهبي في "الميزان" فقال: البدعة على ضربين: صغرى كالتشيع بلا غلو، أو بغلو كمن تكلم في حق من حارب علياً، فهذا كثير في التابعين وتابعيهم مع الدين والورع والصدق، فلو رُدَّ حديث هؤلاء لذهب جملة من الآثار النبوية وهذه مفسدة بيّنة، وبدعة كبرى كالرفض الكامل والغلو فيه، والحط على أبي بكر وعمر والدعاء إلى ذلك، فهذا النوع لا يُحتجُّ بهم ولا كرامة، وأيضاً فما أَسْتَحْضِرُ الآن في هذا الضرب رجلاً صادقاً ولا مأموناً بل الكذب شعازهم، والتقيُّة والنفاق دثارهم فكيف يقبل نقل من هذا حاله حاشا وكلا، فالشيعي الغالي في زمان السلف وعرفهم هو من تكلم في عثمان والزبير وطلحة ومعاوية وطائفة ممن حارب علياً رضي الله عنه، وتعرَّضَ لسبِّهم، والغالي في ... عرفنا هو الذي يُكفر هؤلاء السادة ويتبرأ من الشيخين أيضاً فهذا ضالٌّ مُفْتَرٍ انتهى وهذا الذي قاله هو الصواب الذي لا يحلُّ لمسلم أن يعتقد خلافه... إلخ، مع إضافة تنمة كلام الذهبي مما لم يورده السيوطي.

14- علي القاري: [وأما من سبَّ أحداً من الصحابة فهو فاسق ومبتدع بالإجماع إلا إذا اعتقد أنه مباح كما عليه بعض الشيعة وأصحابهم أو يترتب عليه ثواب كما هو دأب كلامهم أو اعتقد كفر الصحابة وأهل السنة فإنه كافر بالإجماع]. من كتابه "شم العوارض في ذم الروافض".

15- وفي عون المعبود شرح أبي داود 264/11: [علماء الشيعة وإن وصلوا إلى مرتبة الاجتهاد، وبلغوا أقصى مراتب من أنواع العلوم، واشتهروا غاية الاشتهار لكنهم لا يَسْتَأْهِلون المجددية، كيف؟ وهم يُخَرَّبون الدين فكيف يُجدِّدون؟ ويميتون السنن فكيف

يحيونها؟ ويُروّجون البدع فكيف يَمُخُونها؟ وليسوا إلا من الغالين المبطلين الجاهلين، وجُلُّ صناعتهم التحريفُ والانتحال والتأويل لا تجديد الدين ولا إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة].

فهذه بعض أقوال علمائنا السالفين في الرفضة على مدار القرون، وكل شيعة اليوم تثبت عليه هذه العقائد التي كَفَرَهُم أئمتنا المتقدمون بها فهو مثلهم لا فرق بينه وبين أجداده، فإن كان الفرد الشيعي ممتنعاً مع طائفته التي رأسها وأهدافها وشعاراتها متلبسة بالكفر الصُّراح، ولم نستطع استبانة الموانع منه فهذا الشيعي يعامل مع طائفته كطائفة ردة وَفَقَ ما بيَّنه علماء التوحيد في كتبهم(2).

وبما أن كثيراً من أبناء السنة في عالمنا الإسلامي يَجْهَلُ حكم علمائنا السالفين، بل يظن الروافض كسائر المسلمين في بقاع الأرض، فكان لا بدَّ للدعاة من إيقاظ النائم وتنبه السارح.

وليس من مبادئ الإسلام تزوير الحقائق، فكلمة التوحيد قبل توحيد الكلمة، وما رأينا أجدادنا العلماء داهنوا أو تَمَلَّقُوا أو تنازلوا مع فرق الضلالة بحجة الوُحدة، وبهذه الطريقة التي يُمَيِّعُ بها كثيرٌ من "الإسلاميين" ثوابت الإسلام.

فهذا هو الحكم الشرعي في هؤلاء -طوائف وأفراد- صريحاً لا مداورة فيه ولا دوران.... ولكن ثَمَّةُ وَفَقَةٍ!!!

فلا أُخْفِيكُمْ أنني مع علمي ببحثهم الدفين، إلا أنني في داخلي كنت أقول: أومن الحكمة العملية الآن الانشغال بالرفضة؟ وعلى التَّنَزُّل: أيُّ حكمة تُجَبِّدُ الإعلان بهذا على مسامع الناس المُعَرَّزَ بهم، كما فعل الشيخ "الزرقاوي"؟... أوليس كثيرٌ من الكفار المجاهرين ممن لا يختلف في استحسان قتلهم كبيرٌ أو صغيرٌ من أبناء العالم الإسلامي.... أوليس هؤلاء أجدُرُّ بالمجاهرة بقتالهم؟

...إنه أمرٌ -وقتها- كان أقرب إلى جلاء البدر في الليلة الظلماء...

ثم لا تُفُتُّ ذاكرتي تسترجع من أرشيف المقروء رسالة الشيخ "الزرقاوي" إلى الشيخ "أسامة بن لادن" يُوَضِّحُ له فيها تكتيكه في العراق، وأنه يسعى إلى إصعاد حرب الروافض الخفي إلى السطح ليصحَّو أهل السنة، فأقول في نفسي من جديد: سبحان الله! أيُّ مصلحة من فتح جبهة مكشوفة اليوم مع الروافض الذين انغمسوا في أمورٍ كُفْرِيَّةٍ حتى شحمة الأذنين؟! كتحريف القرآن وتكفير الشيخين... إلخ؟

أفكارٌ كانت تتناوشني من هنا وهناك كلما تناهى إلى سمعي خبرٌ يُمُتُّ إلى عملية ضدَّ الرفضة تتبناها "جماعة التوحيد والجهاد"، ثم أراني كلما استرسلتُ ما أَلْبَثْتُ أَشْوَشَ على بَثِّ أفكارٍ فأقول جازماً:

لا بد أن في الأمر سرّاً خافياً، وبما أنني لستُ في الساحة العملية فليس من الحكمة الجزم بالحُكم، ولأن أمير جماعة التوحيد والجهاد صاحب تجربة قديمة من أيام أفغانستان فلا يُظَنُّ به أنه يَخْفَى عليه مثلُ هذا الأمر الواضح... إلخ...

فعندها تهدأ التصادماتُ الفكرية عندي ثم تعودُ أفكارُ التشويش مرةً أخرى مع خروج بعض الكتابات لرموز التيار الجهادي تُلَمَّحُ إلى قريب التصريح باستتكارِ صنيع الشيخ "الزرقاوي" من الناحية العملية، كسياسةٍ شرعيةٍ، ثم لا أَلْبَثُ أن أَشْوَشَ على بَثِّ أفكارِ التشكيك مرةً أخرى... وهكذا بين مدٍّ وجَزَرٍ فكريٍّ يَتَرُكُ سفينةَ القرارِ بلا قرار(3).

أَعْتَرَفُ أسفاً أنني كنتُ كثيراً ما أضرب -من دون شعورٍ أو انسياقاً رغماً عني مع تيار الإعلام الهادر- أضرب مبادئنا الإسلامية التي درج عليها علماءنا الأوائل وقررتُها كتبُ أهل "مصطلح الحديث" من أهل الاختصاص فيما يتعلق بضوابط التوثق من الخبر... كنت أضربها غُرْضَ الحائط! ومن هذه المبادئ المعروفة:

* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا. سورة الحجرات.

* (كفى بالمرء كذباً أن يُحَدِّثَ بكل ما سَمِعَ)(4).

ومع أن الحقيقة أكبر مظلوم على وجه الأرض، إلا أن الله يأبى إلا أن يَكْشِفَ شيئاً قبل يوم الحساب قبل أن يُبَعَثَ ما في القبور ويُحْصَلَ ما في الصدور.

حتى تشابكت الأحداث وسافقتني رياحُ الأقدارِ العجيبةُ لألتقي بالشيخ "الزرقاوي" على نحو ما بَيَّنْتُ في الحلقة الأولى من سلسلة "خفايا التاريخ".

وراحت الحقائق الموءودة تُخْرَجُ من قبر المجهول واحدة واحدة؛ فمنها ما يَقْلَعُ الأفئدة، ومنها ما يكسر الضلوع، ومنها ما يثير التساؤلات، ومنها ما يحرك شفتيك ويرفع حاجيك تعجباً رغباً عنك، ومنها ما يُخْرِجُ من صدرك نفثة مصدور، أو زفرة مكلوم،... وهلم جرأً، حتى ازدددت يقيناً بعدالة تلك الكلمة وإنصاف من يطبقها: "من جاءك وقد فُتِنْتَ عِنه فلا تَحْكُمَنَّ له حتى ترى خصمه فلعله فُتِنْتَ عِناه".

فيا أنصارَ الحقيقة: إن كنتم صادقين في نصرتها، فتعالوا هنا، وانقلوا ما ترونه بأمر أعينكم أو ما تتوثقون من سماعه بأقلامكم ومُصَوِّرَاتِكُمْ، ولا تَشْمُوا بأنوف الإعلام الغربي الخداع، ولا تنظروا بمناظير عملائهم في عالمنا الإسلامي.

ولئن لم تأتوا بالله حسيبكم، ولن أنتظركم، وسوف أُخْرِجُ قَدْرَ استطاعتي شيئاً من المدفون تحت ركام التاريخ، عسى أمتنا أن تصحو، ووجهُ البدر أن يتألاً بعد أن علته غيايات التعقيم والتكتيم أمداً طويلاً، وعسى أهلُ الحق أن يعرفوا أهمية تجلية الحقائق لأبناء الأمة.

لن يكون تركيزي كثيراً على القديم من المعتقدات والأحداث التاريخية المتعلقة بالرافضة؛ لأنها قد قُنِلَتْ بحثاً فيما أرى سواءً الكتب أو المقالات أو الاقراص الليزرية أو مواقع الإنترنت مما يشفي الغليل ويريح العليل، وما يهمنا هنا كمسلمين أن تظهر خفايا الواقع الحالي التي يجهلها أغلب المختصين فضلاً عن العوام المُغَرَّر بهم؛ لذا سأركز بالدرجة الأولى على حالة الرافضة في أرض العراق، وكلّ ما يتعلق بهم الآن من أقوال أو أفعال أو معتقدات، ويدخل في هذا تصريحاتهم، ومجلاتهم، وجرائدهم، وتخطيطاتهم، وما لفَّ لفَّها، وسيجد القارئ إجابات متناثرة عن تساؤلات متكررة بين المؤيدين والمعارضين في الساحة الفكرية والإعلامية، من نحو:

(1) أليس الشيعة مسلمين، فكيف نقاتلهم؟ أليس من يقاتلهم نَهَجَ نَهَجِ الخوارج، وانطبق عليهم الحديث: "يَقْتُلُونَ أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان؟"

أم أن إسلام الروافض اليوم إسلام ديكوري، وادعاء لساني اجتمع مع نواقض عديدة للإسلام، ما بين نواقض اعتقادية إلى نواقض قولية أو فعلية؟

(2) أليس كثيرٌ من الشيعة يُعْلِنُونَ أنهم لا يقولون بتحريف القرآن، ولا يَقْدِفُونَ عائشة، ولا يرون كفر أبي بكر وعمر، ويدعون إلى الوحدة مع أهل السنة والتآخي معهم؟

أم أن هذه الدعاوي ذُرٌّ للرماد في العيون، وضَحْكٌ على كثير من اللحي كما يقولون، وتغريزٌ بذوي النيات الطيبة، واستدرازٌ لتفكيرهم العاطفي انطلاقاً من مبدئهم الذي يظنونه حديثاً -وهو حديث مكذوب لا يصح-: "لا دينَ لمن لا تَقِيَّةَ له؟" وهو مبدأ خبيث تُغْدِي به مرجعيات الروافض أبناءها من صغرهم للضحك على أبناء السنة الذين تسميهم أبناء زني؟ وإن من عاش في مدن إيران يرى بعينه لافئات سب الصحابة، ويسمع بأذنيه تسفيهم لأزواج الرسول كعائشة.

- ودعواهم للوحدة من هذه المشكاة، بل "عبد الحميد المهاجر" من خبثاء رؤوسهم يلعن هذه الوحدة بغضب شديد، -في تسجيل صوتي-، وأيُّ تآخٍ وفي بغداد دخلوا بيوتاً وسبوا الصحابة جهاراً نهاراً، ورُوِّعُوا الأطفال وانتهكوا حرمة النساء حتى أذركت

الناس هناك أنها الروافض بثوب الجيش والشرطة؟ وكم أُؤذيت أخوات في الجنوب وحمّلت منهم، وهم يسمونهن "وهايات"، ولولا الروافض اللثام في سجن "أبو غريب" لما تمكّنت أمريكا مما تمكنت منه.

(3) كيف يُقاتل الروافض وهم يصلون وبلادهم طافحة بالمظاهر الإسلامية في "إيران" كمساجدهم وأزياء آياتهم؟ أم أن المظاهر هذه قد خُدعَ بها كثير من أبناء السنة، ولو دققتم في عباداتهم لجزم العقلاء أن هذا لا يُمثّل إلى الدين بصلة، خذ مثلاً صلاتهم العجيبة في مواقيتها وكيفيتها، ولطمياتهم الصيبانية، وإيران الخبيثة في طولها وعرضها فيها كنائس ومعابد يهودية في أصفهان وليس فيها مساجد لأهل السنة، بل احتلت الرافضة عدداً من مساجد السنة في بغداد، وراح بعض أبناء جلدتنا بسطحية عجيبة يردد ليغضّ أهل السنة الطُرف: "المساجد حجارة يمكن أن تبني غيرها".

وفوق هذا فإن بلادهم طافحة أكثر وأكثر بحقائق الشراكات الكبرى والصغرى.

(4) أليست إيران من الدول التي تطبق الشريعة الإسلامية في دستورها؟ أم أنها شريعة آياتهم ومرجعياتهم التي حرّفت الدين ثم سمّته إسلاماً، وأي شريعة إسلامية هذه التي ترى فيها نسبة الزنى من أعلى النسب في إيران، والتي ترى فيها حدود الله مبدلة أو معطلة أو محرفة، وآياتهم هي التي تأمر وتنهى.

(5) أليس قوادهم من علماء الإسلام الذين تشبّعوا بالعلم الشرعي ثم انطلقوا إلى ساحات الواقع؟ أم أن هؤلاء من كبار الضّلال ممن انغمسوا حتى شحمتيهم في المخالافات العقديّة والفرعية، والعلم الشرعي لا يكون علماً مقبولاً حتى يوافق الكتاب والسنة، وهم لا يأخذون أحاديثهم إلا عمن يُسمّونهم أهل البيت، فأياتهم التي انطلقت إلى ساحة الواقع انطلقت لتطبق بروتوكولاتهم، لا لتطبق آيات القرآن وأحكام السنة الثابتة.

(6) ألم يدافع الشيعة عن أبناء المسلمين المنكوبين في أرجاء المعمورة؟ ألم يتبنّوا كثيراً من القضايا العالميّة؟ أم أن الروافض ودولتهم ما كانت يوماً مناصرة لأهل السنة على مدى التاريخ، إلا عوام أهل السنة في محاولة خبيثة منها لتشيعهم، وأما تبنيهم لقضايا أهل السنة فهو تبني أجوف كرتوني، وقبائل الشيعة الآن مثلاً تطعن إخواننا المجاهدين من الظاهر في منطقة "وزیرستان" جنباً إلى جنب مع أفراد الجيش الباكستاني، وصرح بعض كتابهم أنه لولا إيران لما استطاعت أمريكا احتلال أفغانستان ولا العراق.

(7) ألم تكن الرافضة من كبار أبطال المقاومة اللبنانية متمثلة بحزب الله، يُهاجمون اليهود ويسعون إلى تحرير فلسطين؟ أم أن "حزب الله" حزب عميل، ولعبة عالمية كبرى لامتناس فوراً الشعوب ثم إخمادها على مدار عشرين سنة مضت، استطاع خلالها أن يمارس دوره ببراعة إلى أن افتضح أمره بعد سقوط إمارة طالبان، فبدأ جلياً أن أمريكا يمكنها بسهولة -لو شاءت- إزالة "حزب الله" الضعيف مقارنة مع إمارة طالبان، إلا أنها لم تفعل لأن دوره لم ينته بعد، ومن الطريف حقاً أنك ترى مهرجان "كان" الفرنسي السينمائي السنوي يستغرق ساعة أو ساعتين ثم يأخذ الجائزة العالمية ويصفق له المُعجبون، إلا أن "حسن نصر الله" وفيلمه انطلى عقدين من الزمن على سذج أبناء أمتنا ولمّا ينته بعد، وهذا إن دلّ فيدل على أشياء مهمة منها: خبثه المتأصل وإتقانه لدوره بين أوراق اللعبة.

ثم قبل هذا أمن المنطق أن يُصَفَّق لأي محرر لفلسطين ولو كان هو ذاته عميلاً خسيساً، كأن تأتي روسية وتحرر فلسطين من اليهود ثم تجلس مكانهم! فالعبرة بعقيدة الفاتحين لا بذات الفتح، وأي فتح جاء به العبيديون المارقون الذين كانوا وصمة عار في تاريخ المسلمين؟

(8) وفي مصلحة من إثارة النعرات الطائفية والعداوات القديمة التي دفنها التاريخ؟

أم أن العقبة العمياء دواؤها النعال، والرافضة أحيث من العقرب، واستئصال المرض الخطير أسلم من أول الأمر خشية استفحاله، فبمجرد تملك شيعة العراق زمام الحكم سيثأرون من أهل السنة إذا ما استبدوا بالأمر والنهي وهكذا دأب الجبان إذا خلا بفريسته؟

9) أليس من الحكمة أن يتحد أبناء البلد الواحد لإخراج الكافر المحتل ثم تُصَفَّى الحسابات بالتفاهم والحوارات السلمية؟

أم أن هذه اللعبة باتت قديمة سَمَّها أبناء السنة من كثرة اللعب عليها، وملُّوا هذا الوتر الخداع، فهم يعرفون حق المعرفة أن اللعبة الديمقراطية إِبْرُ "مورفين" يُخَقِّنُ بها أبناء السنة ثم يستيقظون وقد طُردوا خارج الحلبة... هذا من الناحية العملية، ناهيك عن الناحية الشرعية التي تحكم على الديمقراطية -بالمعنى الغربي- بأنها طاغوت عصري مردول.

10) أليس الشيعة متهاكين لإخراج المحتل وتحرير العراق، ولا أدل على هذا من ثورة جيش الصدر؟

أم أن الشيعة تآمروا مع المحتل وسهلوا له الدخول وهم الآن عباده المأمورون، والدروع التي يتقي بها، والعصي التي يضرب بها، وهم عيونهم في كل مكان... عيون للأمريكان... وقد دخلوا إلى المراكز الحساسة، وجاؤوا بثوب الشرطة والحفاظ على المواطن، فأرادوا خديعة الناس لأن الناس البسطاء تنخدع بسرعة وتميل إلى الجيش والشرطة لأنها اعتادت أن يكونا مصدر أمانهم وعزيتهم، بل نشر الرافضة في "الانترنت" أنهم يُفَضِّلون دخول أمريكا إلى العراق! لماذا يا ترى؟ لأنهم يعرفون كيف يلعبون على الحبلين.

وما ثورة الصدر إلا ظُفْرٌ مُخَدَّب لم تتقاطع مصالحه مع مصالح كبار طواغيتهم فكان مآله القصف والتشذيب، وطالما جعجع "الصدر" داعياً إلى الحلول السلمية، فأين إخراجهم للمحتل أو حتى سعيه؟ هذا فضلاً عن أن جيش "صدام" وإن كان جيشاً بعثياً بلا عقيدة دينية إلا أن جيش المهدي وأمثاله جيوش عقائدية طائفية تمهد للأعور الدجال.

11) أليس إشعال الحرب الطائفية من مقاصد أمريكا في العراق، فكيف يسعى "الزرقاوي" إليها وهي هدف أمريكي؟

أم أن أمريكا تخشى كثيراً من إشعال حرب طائفية لأن هذا يعني أنها لن يكون لها قَدَمٌ في الساحة وستُمنى بالهزيمة النكراء؛ لذا تراها تسعى جاهدة أن تُلْبِس الشيعة لبوس الجيش والشرطة ومكافحة الشَّعْب ليُظْهروا إلى سدج السنة من العوام على أنهم أبناء البلد الذين يريدون نجاته، فهذه هي خطتهم الخبيثة أن لا يُظْهروا أن القتال بين السنة والرافضة؛ لأنها ستعني حرباً خاسرة للأمريكان والرافضة إذا استيقظ أبناء السنة النيام؛ لذا نشرت أمريكا الرسالة التي وقعت بيدها من الشيخ الزرقاوي إلى الشيخ "أسامة بن لادن" وأدخلتها كل بيت عساها تنفر البسطاء من العوام من هذا الخطر الداهم.

12) أليس الجهر بقتال الشيعة مفسدته أكبر من مصلحته، سواء بين عوام المسلمين، أو على مستوى المثقفين، وضرره على أهل السنة أكبر؟

أم أن الشيخ "الزرقاوي" رغم عداوته الدينية للروافض إلا أنه ما كان ليدخل حرباً مع الرافضة لولا جرائم الروافض المشاهدة، من تقتيل سِرِّيٍّ أو مكشوف لكوادر السنة، إلى تهجير لكثير من العوائل السنية من بغداد والجنوب، إلى احتلال عدد من مساجد السنة في بغداد، حتى صارت بغداد سوداء العمائم، فلو لم يبدؤوا هم لما بدأ بهم الشيخ "الزرقاوي" فإن كانوا هم البادئين فكيف نسكت؟ أم نصيب المسلمين دائماً الرضا بالذل والهوان؟ ولو أن أهل السنة علموا كم من الشر دُفِع عنهم بعمليات "جماعة التوحيد والجهاد" لَسَجَدُوا سجود شكر لله على ما أزيل عنهم من مخططات الإجرام الرافضي.

فلم يكن "الزرقاوي" أصلاً ليعلم عن أي من عملياته لا التي ضد الأمريكان ولا التي ضد الرافضة فلما وَقَعَتْ رسالته إلى الشيخ "أسامة" بيد الأمريكان كان لا بد من توضيح سبب عملياته.

فعملية "الحكيم" كان بينها وبين الإعلان /8 أشهر/.

13) أليس قتل "الحكيم" فاتحة شر لحرب طائفية تسعى لها أمريكا؛ إذ يُسْتَبَعَد على مثل طاقة "الزرقاوي" أن تقوم بها؟

أَمْ أَنْ قَتَلَ الْحَكِيمَ وَضَعَ حَدًّا لِلشَّيْعَةِ الْمَجْرَمِينَ، وَحَجَّمَ انْتِفَاشَهُمْ، وَعَرَّفَهُمْ أَنْ أَبْنَاءَ السَّنَةِ وَرَاءَهُمْ مِنْ يَسْتُنْدُ ظُهُورَهُمْ وَيَأْخُذُ حَقَّهُمْ، وَلَكِنْ الْمَشْكَلَةُ أَنَّ الْمُحَلِّلِينَ وَالْمُسْلِمِينَ عُمُومًا وَصَلُوا إِلَى دَرَجَةٍ مِنَ الذَّلِّ وَالسَّدَاجَةِ حَتَّى أَنَّهُمْ مَا عَادُوا يَتَخِيلُونَ مَجْرَدَ تَخِيلٍ عَمَلًا عَظِيمًا قَامَ بِهِ إِبْمَاءُ الْمُسْلِمِينَ رَغْمَ ضَعْفِ عِتَادِهِمْ أَمَامَ عِتَادِ الْكَافِرِينَ، فَيُظَنُّونَ أَنَّ قَتْلَ الْحَكِيمِ صَنِيعَةٌ يَهُودِيَّةٌ، وَأَنَّ هُجَمَاتٍ مَبْنَى التَّجَارَةِ فِيهَا إِصْبَحَ الْمَوْسَادُ.

14) أَلَيْسَ مُشَايِخُ الْمُسْلِمِينَ وَعَلَى رَأْسِهِمْ هَيْئَةُ أَهْلِ السَّنَةِ فِي الْعِرَاقِ تَنْتَقِدُ إِثَارَةَ الْخِلَافَاتِ مَعَ أَشْقَائِهِمُ الشَّيْعَةِ؟ أَمْ أَنَّ هَيْئَةَ أَهْلِ السَّنَةِ الَّتِي سُمِّيَتْ هَكَذَا لَا تُمَثِّلُ أَهْلَ السَّنَةِ، وَمَا هِيَ إِلَّا مَجْمُوعَةٌ لَمَلَمَتْ بَعْضُهَا فِي فُرْصَةِ الْبَلْبَلَةِ وَادَّعَتْ أَنَّهَا مُمَثِّلَةٌ أَهْلَ السَّنَةِ، وَهِيَ -فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ- لَا تَعْرِفُ كَثِيرًا مِنْ حَقَائِقِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي سَنَرَاهَا فِي سِلْسِلَتِنَا هَذِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، أَوْ تَعْرِفُ وَتَحَاوُلُ بَخَ "الْبَارْفَان" لِلتَّلْطِيفِ الْجَوِّ وَإِبْقَاءِ النَّيَامِ نِيَامًا، وَإِلَّا فَلْيُفَكِّرْ أَيُّ عَاقِلٍ: هَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَسْمَحَ أَمْرِيكَةُ لظُهُورِ هَيْئَةٍ بِهَذَا الْوُضُوحِ فِي بِلَدٍ تَحْكُمُهَا هِيَ لَوْ لَمْ تَكُنْ مُرْضِيَّةً لَهَا؟! وَمَتَى قَبِلْتَ أَمْرِيكَا بِشَخْصٍ يَهْدُهَا بِالْفِعَالِ لَا بِالْكَلامِ؟ وَأَمَّا جَعِجَعَاتُ الْكَلَامِ فَلَا تَحْرُكُ سَاكِنًا، وَلَا تَخِيفُ عَدُوًّا، فَشَتَانٌ بَيْنَ عَهْنِ الْكَلَامِ وَبَيْنَ سَكَاتِ الْفِعَالِ!

15) أَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ إِنْ كَانَ "الزَّرْقَاوِي" مُصَمِّمًا عَلَى قِتَالِهِمْ، أَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ لَا يُظْهَرُ هَذَا عَلَى الْمَلَأِ؟ وَمَا هِيَ الدَّوَافِعُ الَّتِي اضْطُرَّتْ الشَّيْخُ الزَّرْقَاوِي أَنْ يَجَاهِرَ بَعْدَاءَ الشَّيْعَةِ أَوْ أَنْ يِقَاتِلَهُمْ قِتَالًا مَكْشُوفًا فِعَالًا التَّعَطُّشَ لِلدَّمَاءِ؟ أَمْ أَنَّ الْإِعْلَانُ بِهَذَا صَارَ حَتْمِيَّةً تَكْتِيكِيَّةً وَظَهَرَتْ فَوَائِدُهُ؛ حَتَّى أَنْ أَحَدَ الْمَجْرَمِينَ فِي بَغْدَادٍ لَمَّا سَمِعَ أَنَّ جَمَاعَةَ التَّوْحِيدِ عَلِمَتْ بِانْتِهَاكِهِ لِأَهْلِ السَّنَةِ فَرَّ مِنْ مَنَاطِقِهِ خَشْيَةً عَلَى حَيَاتِهِ، وَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَخْفَى عَلَى الشَّيْخِ الزَّرْقَاوِي وَكَثِيرٍ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ ضُرَّ الْمَجَاهِرَةُ بِقِتَالِ الشَّيْعَةِ إِعْلَامِيًّا وَهُوَ يَعْلَمُ جَيِّدًا مَبْدَأَ مِرَاعَاةِ "خَيْرِ الْخَيْرِينَ وَأَخَفِّ الضَّرَرِينَ" أَمْ أَنَّ أَسْرَارًا تَكْتَنِفُ الْحَوَادِثَ الْغَامِضَةَ؟... وَكَمَا يَقُولُونَ: "عِنْدَ جُهَيْنَةِ الْخَبَرِ الْيَقِينُ"....!

ف"الزَّرْقَاوِي" صَاحِبُ تَجْرِبَةٍ رَائِدَةٍ، وَهُوَ أَمِيرُ السَّاحَةِ فَهُوَ أَدْرَى بِهَا وَبِمَا يَصْلَحُهَا، وَفَوْقَ هَذَا فَإِنْ حَوْلَهُ مِنْ أَبْنَاءِ بِلَادِ الرَّاغِدِينَ مِنْ يَحُوطُونَهُ بِمَشُورَتِهِمْ، فَتَتَعَاقَقُ خَبْرَتُهُ مَعَ مَشُورَتِهِمْ وَيَنْطَلِقُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ فِي أَرْجَاءِ الْبِلَدِ.

فِي هَذَا قَبْلَ أَنْ تَنْتَقِدَ تَفْضُلُ إِلَى هُنَا لَتَرَى الْحَقَائِقَ ثُمَّ أَصْدَرَ الْفَتَاوَى وَالْمَقَالَاتِ وَإِلَّا كُنْتَ ثَانِي ثَلَاثَةً فِي (الْقَضَاةِ ثَلَاثَةً: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ؛ رَجُلٌ قَضَى بِغَيْرِ الْحَقِّ فَعَلِمَ ذَلِكَ فَذَكَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ لَا يَعْلَمُ فَأَهْلَكَ حَقُوقَ النَّاسِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ قَضَى بِالْحَقِّ فَذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ) (5).

هَذَا فَضْلًا عَنْ أَنَّ "جَمَاعَةَ التَّوْحِيدِ وَالْجِهَادِ" مِنْ أَحْرَصِ النَّاسِ عَلَى تَجَنُّبِ إِرَاقَةِ قَطْرَةِ دَمٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، كَيْفَ لَا؟ وَهِيَ قَامَتْ فِيمَا قَامَتْ لِإِنْقَازِ دِمَاءٍ وَأَعْرَاضِ وَأَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ أَمَرْنَا اللَّهَ بِحِمَايَتِهِمْ، وَلِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ خَفَاقَةً فِي أَرْجَاءِ الْمَعْمُورَةِ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ.

16) أَلَمْ تُسَفِّرْ عَمَلِيَّاتُ جَمَاعَةِ "الزَّرْقَاوِي" عَنْ قَتْلِ أَبْرِيَاءَ لَا عِلَاقَةَ لَهُمْ بِالْحَرْبِ، أَفَلَا يَكْفِي هَذَا لِيَرْتَدَّعُوا عَنْ تَفْجِيرَاتِهِمْ وَعَمَلِيَّاتِهِمْ عُمُومًا؟

أَمْ أَنَّ تَرْكَ الْأُمُورِ لِلْأَمْرِيكَانِ الصَّلِيبِيِّينَ وَعَمَلَاتِهِمْ سَتَكُونُ عَاقِبَتُهُ أَشَدَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، خَاصَّةً وَأَنَّهُمْ هُمْ أَنْفُسُهُمْ طَالَمَا قَصَفُوا "أَبْرِيَاءَ" عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِهِمْ، وَطَالَمَا انْتَهَكُوا أَعْرَاضًا، وَشَرَدُوا أَسْرَاءَ، وَتَمَمُّوا أَوْلَادًا، وَكُلُّ هَذَا بِاسْمِ مُحَارِبَتِهِمْ لِلْإِرْهَابِ، وَهُمْ أَكْبَرُ إِرْهَابِيٍّ بِالْمَعْنَى السَّلْبِيَّةِ الْمَذْمُومِ.

وَلَوْ فَرَضْنَا أَنَّهُمْ إِنْ اسْتَبَدُّوا بِالْحَكْمِ فَلَنْ يَرِيقُوا قَطْرَةَ دَمٍ مُسْلِمٍ، وَلَنْ يَغْتَصِبُوا امْرَأَةً، وَلَنْ يَشْرُدُوا عَائِلَةً، وَلَنْ يَأْسُرُوا شَابًا وَاحِدًا مُتَدِينًا، أَفَلَيْسَ الْمَكُوثُ تَحْتَ ذُلِّ الصَّلِيبِيِّينَ، وَظَلْ غُبَادِ الْقَوَانِينِ، مِمَّنْ طَلَقُوا شَرِيعَةَ اللَّهِ، وَجَعَلُوهَا مِنْ مَخْلَفَاتِ الزَّمَانِ، أَفَلَيْسَ هَذَا

كافياً ليريق المسلمون كلهم دماءهم وليدخلوا أعلى جنان ربهم؟ أفليس تحكيم شرع الله تراق في سبيله الدماء، وتقطع الأعناق، وتنتشر الجماجم والأشلاء لتكون سلباً يعلو به ديننا العظيم؟ وأيهما أهون: نفوسٌ تُزهقُ أم دينٌ يُسحقُ؟

-انتهت الحلقة الرابعة-

الحلقة الأخيرة^[2]

الزرقاوي كما عرفته

-الجزء الأول-

ومن وعى التاريخ في صدره *** أضاف أعماراً إلى عُمره

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه الكرام، ثم أما بعد: فبعد سنواتٍ ثلاثٍ مَضَتْ فارَقْتُ فيها القلمَ وفارَقْتُ -رغم قربه مني-، ونادَمتُ الذكرياتِ وسامَرْتُني -رغم بعدها عني-، وفي مثل هذه الأيام من شعبان قبل ثلاثِ سنواتٍ كنت في بداية صياغة مشروع "من خفايا التاريخ"، أسأل فيها شيخنا الراحل ويجيبني، وأقترحُ فيفيدني، ويسترسلُ فيُمتعني.

كنت مستبعداً أن يلتزم شلمي مع كثيرٍ مما كتبه قديماً قُبيل أحداث الفلوجة الثانية؛ لكنَّ يدّاً حانيةً رأت جهazi "الحاسوب" الضائع مني كيتيم بين الأجهزة فاحتفظت بما فيه من ملفات، فلما عرفتُ بالخبر سارعتُ لأخذ نسخة منها، حتى قدَّر الله لي الآن أن أقلبَ بطونَ مجلداتها وملفاتها لأعثر على كلِّ ما كتبه أو بدأتُ بكتابته قديماً مما ترتَّب وتناثر بنصّه وفصّه، فوق نظري على ملفٍ كنت عنوانه هكذا: "الشيخ الزرقاوي كما عرفته"، ورأيتُني قد كتبتُ في مطلعِه:

[ارتأيت أن تكون هذه هي الحلقة الأخيرة من سلسلة "خفايا التاريخ"، والتي لا يمكن أن أنشرها في حياة الشيخ؛ لأنه لن يرضى بها، وأما لماذا لن يرضى بها فلأنني كما عرفته لا يحبُّ الثناء، والسلسلة رغم أنني أنا الذي أصوغها ولكن لا بد أن أُطلِّعَ عليه بعد انتهاء الصياغة حتى يصبَّ خطأ أو يُعَدِّلَ شيئاً، فأما هذه الحلقة فلا أظنه يوافق عليها البتة.

-هذه الحلقة شئت أن تكون تسجيلاً لمواقفٍ أعجبتني من الشيخ لِمَا فيها من عبرة، المواقف من حياته الشخصية لا الجهادية^[3]، عَزَمْتُ أن أسجلها من أوائل أيام لقائي به، ولا أدري متى يَكْتُبُ لها الله الظهور أو متى يَكْتُبُ لها الله التَّوَقُّف، هل بعدَ لحاقي بالدار الآخرة أم بعد لحاقه؟... والعلم عند الله]، اهـ.

- ودارَ الزمنُ دورته؛ حولاً، وحولين، وثلاثة، وسبَّقتني الشيخُ الأجلُّ إلى العالم الآخر وتركني وراءه أذرفُ دمعَةَ الوفاء وأمسحُ دمعَةَ الذكريات، وقلمي من الدمعتين يَرْتَشِفُ؟

- لقد أَقْصَيْني -كسائر المجاهدين- نبأُ مقتله فرثيته بقصيدة كان مطلعها:

أَلَمْ يُورِّقْ مُقْلَتِي وَكِيَانِي *** فَيَدُرُّ دَمْعًا مِنْ دُرَا شِرْيَانِي

- ومن عجيبِ المواقفات أنني بُعِدَ نبأُ مقتله رأيته في رؤيا وقد تعانقنا عنقاً حميماً، ثم قال لي: "أنا لم أمتُ"، فما كان مني إلا أن عرضتُ عليه أن نتابع سلسلة "من خفايا التاريخ"، وأن نفتتحها بوصف شعوره في لحظات القصف، وكانت قرائن حاله تشير إلى الموافقة.

2 - هذه الحلقة هي التي نشرها مركز الفجر للإعلام بأجزائها الثلاثة .

3- رغم أن التفريق بينهما في مثل حياة المجاهدين اليوم يكاد يكون صعباً.

- وها هي ملفاتي بين يدي، وعناوين الحلقات التي لم يُكتب لها الظهور أمامي مع نُثارِ رؤوس الأعلام التي كنت أَقْتَصُّهَا أثناء جلّساتي مع الشيخ، هذا فضلاً عن مواقف بيني وبينه أو جلسات أو مسامرات، ولكنّ أني لذاكرتي أن تستحضر كل القصص، وكيف أنسقتها في غمرة ضيق الوقت الحالي؛ خاصة وأن كثيراً منها ما عُدْتُ أذكر تفصيل إجماله، وطول العهد يُنسي كثيراً.

- فحزّت أيّ ثوب أُلْبِسُهُ إياها لأخرجها لقرائنا الكرام، ثم رأيت الحل الأمثل -في مثل ظرفي- أن أسردها سرداً هكذا بحسب ما تُسَعِّفُ به الذاكرة مما كنت كتبتُه وقتها أو استحضرتُه الآن، ودون تقيّد بضابط معين في عرضها، تاركاً لذاكرتي العنان، ومُرخياً لقلمي ذيل البيان، حتى تكون أشبه بخواطر أو ذكريات في فُقرات غير مترابطات إلا برابط واحد يتلخص بثلاث كلمات: "الزرقاوي كما عرفته".

واني بما سأكتبه لأرجو أن ألامس أهداب ذكريات شيخنا الغالي "أبي حمزة المهاجر" عساه يَجُود علينا بقبص فريدة جرت بينهما، كيف لا؟ وهما رفيقا درب، ورجلا قضية.

1 أول لقاء بيننا: كان أول لقاء بيني وبينه مع مجموعة من الإخوة، وحين وصل إلى المكان الموعود كنا جالسين ننتظره، فلما دخل -ومعه ابن الجراح رحمه الله- بزيّ الأسود وبسطة الجسم التي آتاه الله إياها مع البسمة اللطيفة وهو يسلم على الحاضرين تذكرت ما جاء في الشمائل المحمدية: (مَنْ رَأَاهُ بِدِيهَةٍ هَابَةٍ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ) [4] فقلت في نفسي: يقسم الله لمن يشاء شَبْهاً مع حبيبهِ خير بني عدنان، عليه الصلاة والسلام.

وبدأ كل أخ يلقي عليه سؤالاً أو استفساراً ويجب الشيخ -رحمه الله-، وكانت غالب أسئلة الشباب الجُدُد عن العراق مستقبله وحاضره، فلما جاء دوري سألتُه: مَنْ أكثر ثلاث شخصيات أثرت عليك في حياتك؟ فسكت الشيخ قليلاً حتى خشيتُ أن أكون أخرجته في السؤال فاعتذرتُ منه لكنه أكَّد مُبْتَهِجاً أن السؤال لا حرج فيه إلا أنه يُفكر! ربما لأنها أول مرة يُطرح عليه مثل هذا السؤال أو لحيرة قد تعتري المرء في اختياره لأول ثلاثة، أو.... ثم قال: فلان، وفلان، وأبو أنس. وكان الشيخ أبو أنس رحمه الله حاضراً، -وأبو أنس رحمه الله معروف بفكاهته ومرحه-، فما أن سَمِعَ هذه الكلمة حتى أَكَبَّ بوجهه وعَلَنَتْ سكينته وهُدوءه وكأن على رأسه الطير... ثم استرسل الشيخ رحمه الله قائلاً: أثرت في رجولته!!!

- لقد كان الشيخان رحمهما الله يحبان بعضهما حباً متميزاً، حتى أنني كثيراً ما كنت أسمع الشيخ أبا أنس يدعو: اللهم اغفر لأبي أحمد [5] وأم أنس؛ فأُنعم به من وفاء.

- وقد حدثني شيخنا الراحل رحمه الله عن أوائل أيام لقائه بأبي أنس ودخوله في جماعة "التوحيد والجهاد" لعلّي أذكرها فيما بعد.

2 تعرفت على الشيخ الحبيب أبي أنس الشامي وحصل انسجام متميز والله الحمد، فطلب مني أن أُعَيِّنَه في تدريس الإخوة الذين كانوا يُعَدُّون للتدريس والوعظ في أنحاء المناطق، وأثناء هذا دُكِرَني عند الشيخ الراحل فأزعم الشيخ على لقاء خاص كان هو الثاني بيننا، وكان من تقدير الله أنني وقتها اطلعت على تقصير من أحد الأمراء مع أحد الإخوة وكتبْتُ مُجَمَّلَ التقصير؛ فحين التقينا تجاذبنا أطراف الحديث حول العمل الشرعي وتطويره وأشياء أخرى وكاشفَتْهُ بأمر ذاك الأخ، وبينما كان يطلع على الملف انهمرت دمعته وقال لي: والله ما كنت أدري بما فعل، ولو دريت لفعلت بالأمير ما تواعد به الأخ! فلله دَرُه ما أحرصه على العدل وأبعده عن الظلم!

ثم قال لي تلك الكلمة التي لا يزال صداها الرقيق في أذني: "أبا فلان، لا فراق بيننا"، وبعد قليل صعدنا السيارة وكان يجلس في الخلف حتى لا يراه أحد المارة وكان لا يفارق سلاحه، فسألني عن كنيته -وكان اسمي غير الحالي- واستشفقتُ أنه يريد شيئاً

4- سنن الترمذي، وإسناده ليس متصلاً.

5- إحدى كنى الشيخ الزرقاوي رحمه الله.

فسألته: ما هي الأسماء التي تحبها؟ فقال: "ميسرة"، -وكنيت كذلك أحب هذا الاسم-، فأخبرته أنني أحب هذا الاسم كذلك أكثر من الاسم الذي كنت متسمياً به، ثم قلت له: "ميسرة" أم "أبو ميسرة"؟ فقال: "ميسرة الغريب"، وقد كان الشيخ رحمه الله يحب كلمة "الغريب" وأخبرني وقتها أنه لا يحب كنية "أبي مصعب الزرقاوي" لكنه اشتهر بها، وكان قد سمي نفسه في أفغانستان "أبو محمد الغريب".

والى الآن يلتبس اسمي "ميسرة الغريب" مع اسم الأخ العزيز "أبي ميسرة العراقي" رحمه الله.

3 وقبل وصولي إلى العراق حَصَلَتْ حادثة سمعتُ جزءاً منها من الشيخ وباقيها من غيره، وخلاصتها أن أحد الصحفيين الأجانب جاء بين الفلوجة الأولى والثانية يريد لقاء صحفياً وقَدَّرَ الله أن أبا أنس رحمه الله كان موجوداً -وكان يجيد الإنكليزية- فأنبرى في الكلام ولم يُقِرْ ولم يَذْكُرْ حتى ذكر وجود عرب مقاتلين، ولكن بعد فوات الأوان... انتبه، ثم انصرف وجلس على أحد الأرصفة وإذ بأمر الفلوجة آتٍ فتفاجأ به واضعاً يديه على وجهه كهينة النَّدْمَانِ، فناداه: ما بك يا أبا أنس؟ فرفع وجهه وحرك رأسه قليلاً يميناً ويسرة ثم أعاد وجهه إلى يديه، فلما عرف شيخنا رحمه الله بالأمر أرسله إلى بيتٍ لثلا يَخْرُجُ منه حتى حين ووضع معه اثنين يؤمنان طلباته... فلما طال المقام وأبو أنس رحمه الله لا يقوى أن يسمع صوت الرصاص والنيران حتى يركض نحوها يستطلع الأمر لما طال المُقَام -والشيخ هو الذي يحدثني الآن بهذا- أرسل أبو أنس لشيخنا رسالة -وهو صاحب الكلمات الرائقة والتشبيهات الساحرة- وكان فيما قال له: "أنا خاتم في إصبعك" فرقاً له الشيخ، وأذن له بالخروج، -رحمهما الله وجمع بينهما في الفردوس بخير-

4 ومرة كُتِبَتْ فيما كُتِبَتْ: يا خيل الله اركبي ويا غارة الله جُدي السير مسرعة... إلخ؛ فاعتزَّضَ رحمه الله على: "يا غارة الله جدي السير" وذكر لي عن الشيخ "أبي عبد الله المهاجر" أنه اعترض عليها لكنه لا يذكر وجه الاعتراض، وذكر لي أن "أبا الغادية" كان حاضراً؛ فأرسلتُ لأبي الغادية أَسْتَوْضِحُ وجه الحظر، وريثما يأتي الإيضاح كنت حذفتها من الكلمة سمعاً وطاعةً للشيخ رحمه الله رغم أني أراها جائزة بناء على أن الغارة في اللغة تأتي بمعنى الخيل، وقولنا: "يا خيل الله أو يا غارة الله" سيان؛ فكلاهما على تقدير محذوف يُعرف عند الأصوليين بـ "لحن الخطاب" كقوله تعالى: "واسأل القرية" أي أهلها.

ودارت الأيام والتقيت بأبي الغادية فاستوضحت منه القضية، فذكر لي أن الشيخ رحمه الله كان إماماً في الصلاة وكان الشيخ المهاجر وأبو الغادية مأمومين به، فدعا الشيخ في القنوت "يا غارة الله..."، فكان هذا سبب إنكار الشيخ المهاجر؛ لأن القنوت لا يناسبه مخاطبة غير الله، فتَبَيَّنَتِ القضية، ولله الحمد.

-الجزء الثاني-

5 في أول رمضان قبل ثلاث سنوات كان الشيخ رحمه الله مُلْتَهَباً شوقاً لإعلان نبأ انضمامه إلى "القاعدة" الكبرى، إلى حبيبه وأميهِ شيخ المجاهدين "أسامة بن لادن"، ولم أره حريصاً على شيء كحرصه ذاك، ولا أزال أذكر حين دخل بثوبه الأبيض الجميل يسألني عن صياغة البيان الذي أُملي عليّ هو من قبلُ خطوطه العريضة، وما أن جَهَّزْتُهُ حتى جلسنا في مجلس شورى كان منهم "أبو عزام" رحمه الله، و"أبو سفيان" أمير بغداد وقتها، ثم توجَّه ساعي البريد لرفع نبأ الإعلان، وكَبَّرَ إخوة السلاح في الفلوجة ابتهاجاً؛ لقد كان خبراً مفاجئاً للغاية، رغم أن إرهاساته كانت من قبل.

- قلت في نفسي: مثلك فلتنك الرجال، وتذكَّرتُ حين سئل أحد تلاميذ مالك عن سبب بقاء موطأ مالك واشتغاره دون غيره من الموطآت فقال: "ما كان لله بقي"، نحسبه والله حسيبه.

- ولو لم تكن لشيخنا مَحْمَدَة تُذَكِّرُ إلا هذه لَكَفَتُهُ فخرًا، وهو الذي تَأَلَّقَتْ وقتها جماعته، وعلا اسمه، وراج شأنه فصَبَّ كلَّ هذا في نهر إعلاء كلمة الله بالوَحْدَة والجماعة؛ لتقوى الشوكة وتعلو الراية أكثر وأكثر؛ اعترافاً منه لأهل الفضل بالفضل، ولا يعرف الفضل لأهله إلا أهل الفضل.

6 كان شيخنا الزرقاوي رحمه الله يُحِبُّ شيخه "أبا عبد المهاجر" -فك الله أسره- وَيُجِلُّه ويشي عليه وَيَوُدُّ لو يأتي إلى العراق، وكانت قرائن الحال تُدَلُّ أنه لو أتى لأوكل إليه مسؤولية الهيئة الشرعية، وكان شيخنا يحثني على تدريس الطلبة كتاب الشيخ المهاجر "أعلام السنة المنشورة في معالم الطائفة المنصورة" وكنا صورناه، وبدأتُ تدريسه للإخوة، هذا فضلاً عن كتاب "فقه الدماء" الذي كنا ننتظر وصوله إلى الفلوجة وقتها ولم يصل إلى أن بدأتُ معركة الفلوجة الثانية، وكان الشيخ ذكر لي أنه دَرَسَه عند الشيخ "المهاجر" أربع سنوات إن لم تخني

ذاكرتي... ثم دارت الأيام ودخل الكتاب إلى العراق بعد أحداث الفلوجة الثانية وطُبِعَتْ منه نسخٌ كثيرة جداً، تحت اسم "مسائل من فقه الجهاد"، وهو كتابٌ جيد قوي، جدير أن يُلَخَّصَ منه ويُدرَّس للإخوة المجاهدين.

7 كان رحمه الله يتعامل مع سائقه ومن حوله تعاملُ الأخ لأخيه، وكثيراً ما كان يُفَتِّت اللحم لإخوانه الجالسين على المائدة يعتني بهم، وَيَرْثُقُ بحالهم فيَشُدُّ هذا من عزميتهم وَيُشْعِرُهُم بِدِفء الأخوة في مثل هذه الأجواء الحساسة، وبنحو هذا الفاكهة -إن وُجِدَتْ- قد يقطعها قسمين بينك وبينه.

- ومعروف أن الشيخ رحمه الله كان يحب الجبن المعروف بـ "الكرافت" إلا أنني سمعت من أحد مرافقيه أنه ذات مرة أحضره له فنهاهم عن إحضاره ثانية حتى يأكله كل الجنود.

- وكنتُ قبيل الفلوجة الثانية رأيت أحد الأمراء قد حار في أمره كيف يوزع كمية بسيطة من "الزيت والزعتر" على الجنود في "حي الشهداء"، فاستفسرته عن قصة هذا "الزيت والزعتر" فبين لي أن الشيخ رفض أن يأكل منه حتى يأكل منه الجنود، ولهذا "الزيت والزعتر" قصة وهي أن الشيخ "أبا أنس" رحمه الله كان مُعْرِماً به حتى أنه أوصى بإحضار شيء منه من بلده "الأردن" فوصل "الزيت والزعتر" بعد مقتله رحمه الله، و"الزيت والزعتر" له مكانة خاصة عند إخواننا الشاميين من بين الأطعمة.

8 وكان إذا أرسل رسالة يقول عن نفسه مخاطباً لي في آخرها: أخوك الصغير يعني نفسه... مع أنه أكبر مني سناً وقدرًا، ولم يكن تواضعه من النوع الديكوري، ولكنه من قلب صادق فيما يبدو، ولم يكن يتشبع بما لم يُعْطَ؛ ففي أول جلسة ثنائية للنظر في صياغة أول بيان شاركته فيه كان إذا أراد تغيير كلمة أو جملة أو إضافة أو إنقاصاً تراه يخاطبني بأدبٍ جَمٍّ ومن باب المشاورة.

9 وبينما كنا نقرأ معاً أحد البيانات لضبطه وتصحيحه خرجتُ معنا كلمة "منعرج" وقد ضَبَطْتُ راءها بالفتح، [دعيني أُحَدِّثُكِ بأمري ونحن في مُنْعَرَجِ اللَّوَّى]، فقال: "هذه أكيد خطأ وهي بالكسر" ثم أعقبها مباشرة بقوله مخاطباً لي: "أصاب امرأة وأخطأ عمر" فقلت له: أراجعها.

وكان رحمه الله قد اعتمد في ضبطه هذا على تأكيد أحد طلبة العلم له أنها بالكسر -وقد سماه لي-، ثم راجعتها في "مختار الصحاح" فذكر أنها بفتح الراء، فالحمد لله على التوفيق.

فتأمل أخي القارئ هذا التواضع الفريد، والمداعبة اللطيفة لإخوانه، أين منها أولئك الذين يظنون شيخنا جهوماً عبوساً عاشقاً للدماء كيفما كانت؟

10 ولا أزال أذكر حين استفتي أحدُ أمراء المفاوز في واقعةٍ تعترضهم وهي أنه قد يأتي رجل مستحق للقتل شرعاً بسيارة وهو محمّل بالبضائع ولكن معه طفل صغير -كأنه ولده- فإن لم يقتلوا الطفل فربما يُخْبِرُ عنهم العدو

المحتلَّ ويدلُّ على المكان، وإن قتلوه مع أبيه نَجَحَتِ المهمة، ونقلْتُ الأمرَ لشيخنا فسارع بمنع هذا العمل متنازلاً عن هذه الغنيمة كلها لئلا يُقَتَلَ الطفل.

11 حدثني سائقه ورفيقه "عبد الرحمن البصراوي" أن الشيخ في أحد أيام رمضان منذ ثلاث سنوات كان يتجول في السيارة لتفقد أحوال رعيته فلمح رجلين لا يعرفهما على قارعة الطريق وقد اقترب موعد الغروب فنزل وأفطر معهما، ولم يجد في هذا حرجاً، وهما لا يعرفانه.

12 وعلى إحدى سيطرات الإخوة مرت سيارة الشيخ فأوقفه المسؤول عن السيطرة وهو لا يعرف الشيخ، وأنزله من السيارة وسأله أسئلة، والشيخ مطواع له في كل هذا، وبعد أن مشى الشيخ عرف المسؤول عن السيطرة أن الذي كان يسأله هو الشيخ رحمه الله فحجل. -حدثني بها سائقه البصراوي كذلك-

13 كنت في جلسة معه والشباب يطلبون منه شريطاً كلَّ مدة ليشد العزيمة وينعش الروح وهو يعتذر ويدلهم على أشرطةٍ لغيره ثم قال بالحرف: "ما كنت يوماً أتوقع أن يحتاج الإخوة أشرطةً مني"! كان يرى نفسه دون أن يعظ هو غيره بأشرطة... أسأل الله أن يأجره.

14 وما كنت لأنسى يوم أن تَبَيَّنَ له من كلامي معه أنه سرد في كتيب (واعتصموا) حديثاً بلفظ لم أره في الروايات -قبيل معركة الفلوجة الثانية- فسارع وقال: نبه الشباب واشطب عليها... لا أنسى عينيهِ اللتين اقترب جفناهما من بعضهما وحرك رأسه وتكلم بصوت خافت متوشَّح بالخوف من القول على رسول الله: [هذا دين يا أخي، صححه]، وكان من رغبات الشيخ أن أعيد تنقيح الكتاب وتخريج أحاديثه، وقد تيسر لي جزء جيد من هذه الرغبة منذ شهرين والله الحمد، وتم توزيعه على الولايات ليدخل ضمن المقرر الدراسي، ومن فضل الله أنه تيسرت لي فيما بعد مراجعٌ أوسع وتَبَيَّنَتْ من رواية الحديث التي أثبتَّها شيخنا فرأيتهَا واردة في كتب الحديث، فالحمد لله أولاً وآخرًا.

15 وفي أوائل مرافقتي للشيخ رحمه الله دخل شابُّ أردني يدعى "أبا عبد الله" من جديد إلى العراق، وكان شديد الحرص على مرافقة الشيخ كحارس شخصي، وعرفتُ أنه كان يعرف الشيخ من أيام أفغانستان، لكنَّ حرصه المتميز لَفَتَ نظري فسألته عن سر هذا الحرص، وعجيب هذه المحبة للشيخ رحمه الله، فذكر لي السر المؤثر وكان مما ذكره: أنه قبل أن يدخل في جماعة الشيخ أراد أن يختبر نفسية الشيخ فقال له وهم قرييون من الخلاء: "بالله بريقك!"^[6]، املأ الإبريق رايح ورايح"، فقلت له: وماذا فعل الشيخ؟ -وهو أمير جماعة هناك في أفغانستان ويخاطبه أحدهم بهذه الطريقة المستفزة- فقال الشاب: ما كان من الشيخ إلا أن أخذه وملاه بكل تواضع دون أي تعقيب، وعندها قال الأخ في نفسه: هذا يستأهل أن أنضم إلى جماعته.

فسبحان الله ما أَلْفَظَه وأعظم تواضعه وهضمه لنفسه أمام إخوانه. وأما ذاك الأخ فقد لقي ربه في غزوة أبي غريب التي قُتِل فيها الشيخ أبو أنس الشامي، وكان قبيل خروجه إلى المعركة أوصاني إن حصل له شيء أن أكتب وصية لأهله وزوجته وأرسلها؛ لكنني غفر الله لي انشغلت كثيراً حتى أتت أحداث الفلوجة الثانية وضاع جهازني مني، هذا فضلاً عن أنني لا أملك عنوان أهله، لقد طار فرحاً حين علم أن زوجته تحمل مولوداً، وكان رحمه الله حديث عهد بزواج.

16 ومرةً كنت أتصفح "فلاشاً" فوق نظره على مقالات للشيخ علي الطنطاوي^[7] الكاتب المعروف، فطلب مني أن أنزلها له على جهازه وأن لا أضنَّ عليه بأي شيء ينفع، فقلت في نفسي: سبحان الله رغم اختلافه مع الطنطاوي في المنهج إلا أن هذا لم

6- أي إبريق الماء، فالأخ كان يخاطبه بالعامة.

7- هذا الطنطاوي توفي، وهو غير المفتي المصري المنحرف الحالي.

يمنعه من الاستفادة مما برع فيه الطنطاوي من أسلوب في الكتابة، وكما يشبه هذا استفادة علمائنا القدامى من الزمخشري رغم اعتزاله، والحكمة ضالة المؤمن... وهذا هو الإنصاف.

- الجزء الثالث -

17) تهيأت الجموع صَوْبَ "أبي غريب" بقيادة القائد الشجاع "أبي أنس الشامي" ومعه من خيرة القواد الميدانيين لفك أسرى المسلمين الذين أسره الصليب وأعوانه ولم يقدم لهم العالم الإسلامي والعالم الإسلامي أكثر من اللسان، وكان الشيخ الزرقاوي رحمه الله يتفقد الإخوة عصر الخميس بسيارته فجاءنا "أبو أنس" ليودعنا ومد رأسه ليودع حبيبه الشيخ أبا مصعب، لقد كانت صفحة وجهه كالقمر المتألي حتى أنها لفتت نظري وقد انحدرت دموع الوداع منه فسألت "عبد الرحمن البصراوي" -السائق-: أكان أبو أنس يودع هكذا في كل مرة؟

لقد تسلسل إلى نفسي شعور قوي أنه اللقاء الأخير بيننا، حقاً لقد جمع "أبو أنس" بين النقيضين عادة: الرقة والشجاعة، وهكذا كان الجيل الذي أعده نبينا عليه الصلاة والسلام: فرسان في النهار رهبان في الليل.

- وانطلقت الجموع وغادرنا مع الشيخ الراحل نتعشى في إحدى بيوتات الأنصار الذين أحبوه وأحبهم؛ وتجاوزنا أطراف الحديث وتطرقنا إلى القرضاوي ما له وما عليه، وإلى علاقة الشيخ السابقة بشيخ المجاهدين أسامة بن لادن وسبب عدم انضمامه في أفغانستان إليه، وأحداث "سبتمبر"... كانت جلسة غزيرة، وإذ بأمر الفلوجة يدخل علينا ليخبر الشيخ بالخبر المفجع! كمين من الأمريكان، وتزامن هذا مع إعلان الفضائيات -الجزيرة وغيرها- نبأ: مقتل 60/ عنصراً من جماعة "التوحيد والجهاد"، فانقطعت شهيتنا للطعام، ولم يكن ثمة متسع من الوقت لاستجلاء الخبر فلا بد أن ننتظر على جمر الصبر إلى الصباح.

- جاء الصباح الثقيل وتضاربت الأنباء عن القتلى من ومن؟ كلنا يستجلي الحادثة ويستبين الخبر، ويستلهم من مولا الصبر... قُتل أبو عمار، وأبو محمد اللباني... وتضاربت الأنباء عن "أبي أنس"، وتوجهتُ إلى "حي الشهداء" وإذ بأبي ميسرة العراقي هناك في زيارة فما أن سمع نبأ أبي أنس حتى انفجر بكاء لدرجة أنه دهشني! فما كنت لأتوقع منه كل هذا البكاء، ورحت أزيل غشاوات الشائعات بما استطعت من قوة بيان إلى حين تبين الخبر، وجاء المساء، ودخل جنح الليل فوصلنا قرص فيه صور القتلى، فسارعت مع الشيخ إلى الحاسوب وبدأنا ننظر الصور واحدة واحدة، وقلوبنا تدقُ تنتظر المفاجآت، حتى خرج الوجه النير والأصبع الموحدة والتراب المهال عليه رحمه الله فعرفنا أنه حق.

لقد تجلّد شيخنا الراحل لهذا النبأ تجلداً كبيراً وكأني بدمعته قد احتبسها في محارجه ينتظر اختلاء منه بنفسه ليسكب كل ما جمّعه فيهما، وسرعان ما وجهني إلى المضافات والمفارز وسائر الأحياء، وقال: "صارت مهمتك الآن صعبة"،

يعني في المجال الشرعي بعد فقْدِ أبي أنس، وطلب مني أن أجوب المفارز وأرفع المهمة، وأخفف الأحران ببلسم الآلام.

فانطلقت مستعيناً بالله، رغم صعوبة سد فراغ كان يسدّه جبلٌ كأبي أنس، بلسانه السيال، ودعابته المرحّة، وعلميته الطيبة، وأحمدُ الله أن تيسّر ما لم يكن بالحسبان.

وبسبب الحادث المفجع أصدر شيخنا رحمه الله أمراً بمنع كل الجولات وانضبط الإخوة فكانت ضربةً موفقةً للعدو إذ استفاد كثيراً من الجولات فيما سلف؛ فعجباً الآن لإخوة -وخاصة المهاجرين- كيف يستعملون الجوال والمعصية تكتنف المتصل لحظة بلحظة حتى يغلق السماع وتبتوب ويعزم ألا يعود.

لقد سهّل العدو سبل الاتصال لغاية يريدها، وما من أخ أسّر إلا وحذر إخوانه في الخارج من خطر الجوال وضرره على العمل الجهادي.

وحسبنا عدد القتلى فإذا به حوالي الثلاثين، فما أكذب الإعلام، وما أكذب الجيش الأمريكي المفلس اللعين! وشتان ما بين الفريقين: المجاهدين والصليبيين؛ فالشيخ أبو مصعب أبي وبشدة ذات مرة نشر خبر فيه زيادة في عدد خسائر العدو عن الحقيقة، وقال بما معناه: "المسلمون ينظرون إلينا وينتظرون منا فلا يجوز أن نخونهم ونلبس عليهم كما يفعل عدونا".

18 وبعد تَبَيَّنَ خبر "أبي أنس" وجَّه شيخنا الإعلاميين لِيُجَهِّزُوا إصداراً يتحدث عن "أبي أنس" وبدأ العمل، وكان مما استقرَّت عليه المشورة أن يتكلم كل واحد يعرفه من الأمراء بكلمة عنه، لكنَّ الشيخ لم تفتح نفسه لأن يتكلم ولا بشقِّ كلمة، وكان من رأي "أبي ميسرة العراقي" رحمه الله أن لا يتكلم الشيخُ بشيء وأن يُكْتَفَى بكلام من يعرفه من سائر الأمراء. وفكرتُ فرأيتُ خَيْرَ ما أتكلّم فيه عنه أبيات من الشعر تعبر عن مشاعري وأحاسيسي؛ فاخترت أبياتاً من نسج أحد الشعراء المعاصرين، مطلعها:

"عينُ جُودِي بدمعك الرقراق *** واسكبيه على أعزِّ الرفاق"

ثم تم إنهاء الإصدار، فطلبتُ من شيخنا أن يشاهده ليدلي بملاحظاتة قبل نشره على الملأ، فجلس ووضعت الجهاز أمامه وراح يعطي الملحوظات من أول "الفلم"، وكانت سيما وجهه أقرب إلى الحزن والذبول، فلما وصل إلى فقرة "عين جودي... إلخ" تَغَيَّرَتْ ملامحُ وجهه وبدت علامات السرور والإعجاب عليه؛ فاهْتَبَلْتُ الفرصة وقلت له: أَعْجَبْتِكَ؟ فقال: نعم، والإلقاء جيد، فقلت: لم لا تأخذها أنت وتلقيها... واسترسلتُ أَذْكُرُهُ بأن رفيقَ دربه من حقه عليه أن يتكلم عنه ولو بشيء يسير.... وكان الشيخ لا يريد التكلم لأنه يرى أن أي كلام لن يوفي حق صاحبه أبي أنس - فقال الشيخ بما معناه: لا.. لا... الأبيات أنت قلتها لن آخذها... فورطتُ نفسي وقلت له: لا عليك أنا أنسج أبياتاً جديدة فهذه ليست من نسجي. فقال: إذن آخذها شريطة أن تقول أنت غيرها، فوافقتُ والسعادة ملأت أحشائي لأن شيخنا سيتكلم بشيء.

فجهزتُ له أبيات: "عين جودي..." واستأنفت مع الشيخ قائلاً: لماذا لا نكتب ولو كلمات قليلات قبيل الأبيات، وما عليك إلا أن تصف لي شعورك حين وصلك خبر أبي أنس وأنا أترجمه إلى لغة البيان، فكان إلقاؤه حقاً متميزاً عن سائر إلقاءاته البطولية، لقد كانت أحاسيسه ومشاعره تخالط نبرته وهو يرثي رفيق دربه.

- وبعد هذا نسجتُ أبياتاً عن أبي أنس رحمه الله كان مطلعها:

وردٌ تألق في بستان أحراني *** جُرْحٌ تَفْتَقُ من أعماق وجداني

19 وُبْعِدَ مقتل أبي أنس رحمه الله بدأ احتكاكي الكثيف بكل الإخوة على اختلاف شرائحهم، وتنوع أطرافهم وأعمارهم؛ فالتقيتُ بأخٍ شاميٍّ دخل العراق جديداً وراح يساررني بأمر حدث معه خلاصته أنه التقى قبل الدخول بأخ من الجزيرة العربية في مضافةٍ من المضافات وأثناء الطعام استفسر المضيف -المنسق- الإخوة عن معتقدتهم بآبن باز وابن عثيمين فتبين له أن الأخ الذي من الجزيرة لا يكفرهما؛ فاستغرب المضيف من ذلك وعنف الأخ ونقل له عن الشيخ أبي مصعب أنه يكفرهما وأن من لا يكفرهما لا يدخل أرض الجهاد، فراح الأخ من الجزيرة بتعجب يقول: "يعني تمنعني من الدخول؟" قال: نعم! وحقاً فعل ما توعدّه به فأرجعه من حيث أتى، لكنَّ الأخ الذي يحدثني خاف فلم يُفَصِّح عن رأيه في القضية خشية أن يُمنَعَ هو كذلك من الدخول إلى بلد الجهاد والرباط وبوابة القدس بإذن الله تعالى.

وما لبثتُ أن رفعتُ القضية إلى شيخنا رحمه الله -خاصة وأنه أوصاني أن أنقل له ما يحدث في الساحة خشية أن لا يتيسر لرعيته أن يوصلوا له بحكم اختفائه الأمني عنهم- فغضب غضباً شديداً وتوعدّ الذي نقل على لسانه خلاف رأيه، وأمر نائبه أن يتحرى من الموضوع فإن ثبت على المضيف ذلك فسَيُطْرَد من الجماعة، ثم قال لي الشيخ: صحيح أنني أراهما قد أضلا الأمة بفتاويهما

لكني لا أكفرهما، والله لو أن الأخ الذي من الجزيرة لا يُكْفَر "فهد" لما حَرَمْتُهُ من الجهاد، وقد دخل العراق كثير ممن لا يكفر الحكومة السعودية ثم حين بُيِّنَتْ له الأدلة افتنع بها لوضوحها.

20 ورغم أن الشيخ كان ينأى بنفسه أن ينكشف بصورته على كل الإخوة خشية أن يتسرب خبر فتأتي الطائرات وتُدك المناطق ويتضرر المجاهدون وسائر الناس رغم هذا إلا أنه كان مهتماً بأحوال رعيته اهتماماً فريداً، وكثيراً ما كان يبقى يدور إلى منتصف الليل يتابع بنفسه الثغور والسيطرات وتحركات الرعية وحال الناس، حتى أنني كنت أستسلم لأسر النوم كثيراً وأنا معه في السيارة، وربما كان يتكلم فأدخل في غيبوبة النوم ثم أصحو وأخجل من نفسي... ولكن ما الحيلة؟ فقد رُفِعَ القلم عن ثلاثة. وفوق هذا كان له وردٌ من الليل لا بد أن يُنَجِّهه، إلا أنه لطول سهره يضطر أن يأخذ قسطاً من الراحة بعد صلاة الفجر ليستأنف الحركة صباحاً.

21 لقد كانت رعيته تحبه، والناس العوام معجبون به، فإذا ما جالسوه أسرهم بهدوئه ورزانة كلامه ورجولة أفعاله، حتى أن أمريكا بغياها جربت أن تغري أحد رعيته لتدبير حادث اغتيال له بتقنيات عالية فhez برأسه ليطلقوه فما أن أطلقوه حتى أخبر الشيخ بالأمر... فسبحان الله ما أسخف تفكير جنرالات أمريكا! تظننا نقاتل لمال أو جاه، وما دَرَّتْ أن دماء العقيدة تنبض بها شرايين جهادنا، وما دَرَّتْ أنها لو تَمَكَّنَتْ من "الزرقاوي" فعندنا كذا وكذا زرقاوباً والله الحمد فأممتنا أمة الجهاد وذروة سنام دينها الجهاد.

ودارت الأيام وقُتِلَ الزرقاوي فظهر نَجْمُ خليفته الذي أثبت جدارةً قَلَّ نظيرها، وأكاد أجزم أن "كوندليزا رايس" الشمطاء ما صرحت بما صرحت به مؤخراً من ثناءٍ عجيب على مَقْدِرَاتِ الزرقاوي إلا لثَوْنٍ من سطوع خليفته وتألقه حتى أنه أنهكهم إنهاكاً، فما رأوا حيلة إلا أن يجربوا هذا الطُّعْم: أن يرفعوا قدر الراحل عساه يُفَتِّتْ من عزيمة الجند بأن خليفته ليس كالراحل، مع أن خبرة خليفته واضطلاعه بأمور الحرب وفنون القتال ومعاشرته لرجالات الجهاد في العالم الإسلامي لهي بمكان! والله الحمد.

بل إنني لا أنسى البتة كلمة أحد الوزراء يقول لي: [إن الخسارة حقاً أن يُقتل شيخنا "أبو حمزة"]!

• يعني أنه بغياب شيخنا الزرقاوي وَجِدَ من يَسُدُّ المَسَدَّ ويتابع المسير ويأتي بفرائد التصرفات، وبديع الأفكار والطروحات؛ فإن لم يكن له إلا خطوته بالانضمام مع عدد من الجماعات لتشكيل دولة العراق الإسلامية وبيعته الشيخ الفاضل "أبا عمر البغدادي" أميراً لها لكفت، وإني لأقول: لئن قتل "أبو حمزة" فإن أمتنا ستلد "أبا حمزة" جديداً، ولن يقف الجهاد، والله إن توفيق الله لهذه الدولة بادٍ للعيان لا يختلف في هذا اثنان لِمَا نرى من طاقة العدو الهائلة وتَقْنِيَّتِهِمُ الفائقة مقابل إمكانات الدولة الإسلامية الفتية، ومع هذا فإن انتصاراتها مكلفة بأكاليل الغار، ونجاحاتها في سياسة الناس عجيبة النتائج، ولم لا؟ وقد أنعم الله على الدولة الإسلامية بأميرها، وعدد من خيرة الوزراء هم أعمدة الدولة فضلاً عن شيخنا أبي حمزة بعد أن كانت حياة التنظيمات تدور غالباً على محور واحد... أسأل الله أن يَقِيَهَا الزلل وأن يوفقها لاستدراك الخلل؛ إذ لا تَسَلِّمُ من هذا دولة على مر الزمان.

نتابع في الجزء الرابع^[8] إن شاء الله تعالى، والسلام عليكم.

ظهر السبت/2/ شوال/1428هـ

الموافق 2007/11/13م